كريم علي القاهري

كريم

رواية

دار العين للنشر

ساحر الكتب

غِـيـمَـه

روايـة

كريم علي القاهري

دار العين للنشر

أسستها د. فاطمة البودي عام 2000

المدير العـام

4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: 23962475 20+ ، فاكس: 23962476 20+

E-mail: elainpublishing@gmail.com

Web: https://elainpublishinghouse.com

الطبعة الأولى: 2025 م

الغلاف: عبد الرحمن خلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٨٣١٩ /٢٠٢٤

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 788 - 3

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار العين

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

إهداءٌ أول

إلى حماي، أشرف مكاوي.. الذي أنقص دنيانا بدخوله الجنة.

إهداءٌ ثانٍ

إلى فنّان الشعب في مئويّته.. سيد درويش.

ورقة ملونة 1

المخزن يضرب يقلب..

مر أكثر من عشر سنوات منذ أخر مرة أتيته، الصدأ تغذى على القفل، ولو أجّرت السقف مَبيتًا للعناكب لكسبت مالًا وفيرًا. كنت أضع يدي على قلبي أن تكون الفئران قد عرفت طريقها إلى المخزن، وسنت أسنانها على ما تبقى من دفاتر وكشاكيل وأوراق. أحمد الله على أنها جاءت حِسبة كام صرصار وعِدة عناكب. طول عمره هذا المخزن وجه السعد. منه بدأت وإليه أعود. وليتني أُدفن فيه. كنت أظن أنني لن أدخله ثانية، حتى ضربت الأسواقَ أزمةُ الأوراق، فحضرت إلى هنا لأحصل على عِدة رزم من الأوراق الملونة، بحثت في كل أدراج البيت ولم أجدها، أو بالأحرى وجدت رزمة واحدة أوجدت فيها القطط الفاطسة كي أروح المخزن.. الغرض مرض.. كانت تلك الرزم تملأ المكتبات وتفيض وتُنادي الكتيب ليحملها من فوق الرفوف. ما باليد حيلة، لعنة الحرب والعملة الخضراء أصابت كل شيء فكيف سينجو الورق؟

من كان يُصدق أن أبعد عنه كل هذه السنوات، الحزن قادر على فعل ذلك، الحزن يزيد دفقات الزهد في القلب.

اليوم أنا فرحان، زُحت المخزن أطير على بساط قلبي لا أسير على قدميّ.

ورقة ملونة 2

في الشيخوخة نرتدُ أطفالًا.. هم يبحثون عن أسهل طرق التواصل

والتمايز. هذا أصفر لون الموز، وهذا أزرق لون السماء، وما لون الفانلة التي يلبسها بابا يا حبيبي؟ يسكت الطفل لحظات يستدعي فيها لون فانلة فريقه الذي يحب، إذ يصنع عقله المقاربة بسبب تطابقها مع فانلة أبيه، ثم يجيب بحماس بريء: أحمر.

ارتددتُ طفلًا وصرت ألجا إلى الألوان كي أفرق بين الأشياء التي لا أريد النسيان أو الخلط بينها؛ خصوصًا مع هوجة التوهان التي يزيد هجومها عليّ يومًا بعد يوم.

جُبت المكتبات ثم لجأت للمخزن، فالأوراق الملونة كالهوامش الخاصة، هي فقط لِما أريد فضه لى وحدي، ولن أعلقها على الجدار، أما الأوراق البيضاء وحدها سوف تُعلق على جدار الضجة.

سأضع الآن هذه الورقة أمام عيني على رف الحافظة فوق المكتب، حتى لا أنسى وأخلط بين الورق الأبيض والملون.

راقبت الرجل النائم بجوار الجدار لعدة ليالٍ، يكاد يكون نائمًا طوال اليوم. هزالته تشي بمرضه. نزل الرصيف من الشارع الأوسطي في اتجاه الميدان الرئيسي، تحديدًا عند السور الطويل المعروف بسور الخرابة، واستوطن جدار الباكية الثانية من السور، ثم تم لصق باغة من الإسفنج على كامل عرضه، ليَسهُل خرقها بالدبابيس المستخدمة فى تعليق خواطر العشاق الملتعاين، والناس المكتومين قهرًا إن أرادوا تنفيسًا بالبوح ولو ملغزًا. حوّط الجدار بمشمع كالذي يداري قصاري الزرع في المشتل لينمو، ووُضع على الأرض بجوار الدكة التي ينام فوقها صينيّة ألومنيوم دائرية ليرمي المتناوبون على الجدار ما خرج من ذممهم البائسة الحزينة قصيرة اليد.

ورقة ملونة 3

استحال الحي جدارًا يسبب صداعًا، وسرعان ما تحول إلى محطة الجدار، يركب عنده ركاب الحافلات وينزلون، لكن الحيرة وحلقة تجاذب الآراء حول الجدار لم تهمد. نادت بعض الأصوات القديمة بهدمه متعللة بوصايات سلطوية شتى؛ تراجعت فجأة لاعتبارت مبهمة. اللافت أن أول ما فكروا فيه هو هدم الجدار والسور كله، ليس فحسب إيقاف تنفيذ الفكرة التي اتخذت من الجدار موطنًا. بيد أن السور كان له أهمية ما، وقد ألمحت تراتبية الشر من الأعلى إلى الأخفض إلى أن لهذه البقعة سرًا لا يعرفه الكثيرون، والغرض دفنه دون شوشرة، ولا تزال الوسيلة غائبة.

حيثنا هذا غريب الأطوار، عالي المقام، أصيل المنحدر، كثير الملقّات، يبحث أهله عن الهدأة والوئام دون جدوى، تتعالى فيه برطمات النساء الصباحية بالدعاء على رجالهن وتمنياتهن بالطلاق والخلاص، بينما في المساء تُطرب نجوم السماء بالآهات الملتاعة الصاعدة من الغرف المدججة بالنور الأحمر الساخن.

جذب الجدار انتباه أهل الحي أشد انتباه. أصبح مزارًا يوميًا للشباب، يعلقون عليه خواطرهم وأحلامهم وآمالهم وفرحهم وحزنهم وأوجاعهم وعذاباتهم وتمرداتهم، بالتصريح والتلميح والدماثة والأباحة، والرسم وشتى الوسائل التي لا أواكب الكثير منها.

لغة الشباب حيوية مثلهم.

ورقة ملونة 4

بات الجدار كالعارفين يحكي ويقص، وما له من لسان، بضع قصاقيص وأوراق معلقة تقول ما تُحجر الألسنة عن البوح به. خاف الجوامد ذوات الأدمغة الضيقة الأفق من أن يصير مقامًا يَزَّاور عليه الناس طلبًا للمدد والعون، ولأنهم من الأصل يعادون المقامات والأضرحة فاختاروا الشيخ عمرو درويش زعيمًا لهم؛ فهم يحسبون كل إطار محدد يتجمع حوله الناس طلبًا لفسحة الروح مقامًا، بذلك المنطق تُصبح المقهى شعيرة الحي العظمى والمقام الأكبر والبراح الأوسع وجنة الصعاليك!

سألني الولد المزعج، صبي المكوجي، عن ماهية الجدار، فصهينت؛ ولم أتجاوب معه في ثرثرة خايبة، لكن كعادته استرسل دون كلل:

- أصل الأسطى شنودة حكى لي أن جورج ابن خالته حكى له إنه شاف نور العذراء الأخضر خارج منه زي ما بتظهر فوق الكنائس.

بضجر سألت:

- يعني ستنا مريم ظهرت عليه؟!

جذب من يدي الشماعات الفارغة في عجالة، ثم قال وهو ينسحب داخل المصعد:

- يا عم صلي!

صحيح، لماذا لم تعد تظهر العذراء فوق كنائس الحي؟ هل كرهتنا أم راحت البركة من الحي؟!

ما ألذ استدعاء حكايات الطفولة لتبسيط المعضلات!

للحق قبل ورق الجدار كنت أملك وقتًا فارغًا يوشك أن يقتل رجلًا وحيدًا. بدا الأمر غريبًا عني، برغم قضاء عمري كله في المطبعة بين الأحبار والأوراق، فإن الكتابةَ ظلت عالمًا مخيفًا، لم يسل لعابي لدرجة أن أشارك فيه في ذروة خوضي بحره، لكنني أشعر الآن فجاة وكأن حموضة الأكلة الدسمة تثقل صدري. أحب الأكل فهو مقدم عندي على البشر، علاقة عاشق ومعشوق، لم يفسدها تحذيرات الأطباء ولا طلباتهم بخفض الكرش. هي موتة ولا أكتر. على أية حال، شعرت أن الحجر الصوان فوق صدري لا سبيل لإزاحته إلا بالكتابة. لست أديبًا متمرسًا، لكن كما كنت أسمع أمي تقول: "من عاشر القوم أربعين يوم صار منهم"، وقد مر على الجدار وورقه ما يزيد على أربعين يومًا، أعاشره من علِ دون سواه كأنه أهلي المطرودون وحبيبتي الميتة، ويبدو أنني أوشك أن أكون من قومه الكتيبة!

ورقة ملونة 5

تهيأت للخروج بعد فترة طويلة من العزلة؛ في خشوع طفل يستعد للبكاء بعدما فطن أن أمه ستتركه على عتبة المدرسة. ذهبت إلى مقهى بسيط أو التي كانت، قبل أن يتغير شكلها ويصير اسمها "لغاويص". بيعت ولم يتبقَّ من الحرس القديم سوى مرتضى الكهل رَصّاص الأحجار الذى عرفنى فرحب بى ترحاب أولاد الأصول. سألته عن أيمن بن باري اللّـه يرحمه، أراحني الرجل من عناء الحيرة التي كنت سأقع فيها لو كان بدل المقهى:

- زمانه على وصول عقبال ما تشرب الحجرين.

عرفته فور دخوله، أيمن يُشبه أباه شكلًا وموضوعًا. لم يكسر قوة باري إلا أن السهم أصاب أيمن. فرق بينهما الدهر وأكلمهما. أيمن في نصف عقده الرابع، نبتات الشعر الأبيض المبعثرة في ذقنه تنافس نبتات الأسى السارحة فى وجهه. رفعت يدى أناديه فأقبل بخطى حذرة تحاول تخمين من أكون، حتى لم يعد بيننا سوى مسافة أذابها الاحتضان الحار بمجرد تفحصه لوجهي. لم أساله عن أمه وإخوته فأنا أعلم بهم منه. كل ما أتمناه ألا يكونوا قد أثقلوا كاهله بإخباره عن المبلغ الثابت مجهول المصدر الذي كان يأتيهم كل شهر طيلة فترة غيابه، فتزيد همومه بهم البحث عن المرسل.

قطعت الصمت الذي حل، ورأيت أثناءه باري يحتل جبين أيمن، فسألته:

- بتعمل إيه دلوقتي؟!

أجاب بنبرة رتيبة خلت من الحماسة:

- مفيش.. يدوبك ماسك كام صفحة على السوشيال ميديا..

- طب والرسم؟!

- بعمل تصميمات خفافي كده من وقت للتاني.

- والكاركتير نسيته؟ الناس رجعت تحبه بسببك.

- ربنا يسهّل.

- رسمت كاركاتير لحسن؟

صمت أيمن وسحب سيجارة من العلبة الزرقاء الرخيصة ثم تسمر

بصره في الفضاء بغير تصويب على شيء، كأنه يهرب من مقال كانت تحدثه به نفسه وحين سمعه جهرًا تمنى التبخر.. استجمع شتاته وقال:

- لأ.

تحسس أيمن هاتفه يعبث ببعض خصائصه ثم أداره على وجهه، فآثرت السكوت والتأمل. استعجلت القهوة التي طال انتظارها حد الزهق، وترحمت على المقهى أيام بسيط العرص إذ كانت المشاريب تنزل في التو واللحظة، ثم حاولت إخراجه من هَمّ السؤال السابق بنكتة أبيحة من سجلات الماضي البهيج، فاجتررت منه ضحكة وسيمة ثم سألني:

- عايش لوحدك؟

هززت رأسي بينما أخفضه حتى يعبر رياح الكلام عن هذه الجهة، بل بادرت بإزاحتها:

- مش هتحكي لي اللي حصل؟

قال في غضبٍ مُغلّف بالحسرة:

- أنت عايز مني إيه؟!

- جيت عشان أسلم عليك وعايز منك خدمة ماحدش في الحي كله يعرف يعملها غيرك.

- اؤمرني.

- الأمر لله حبيبي.. تعالى معايا!

ورقة ملونة 6

في سير وئيد يظلله الليل اخترقت السكون الحابي على الحي، أتعكز على آخر هدايا كمال عزازي لي؛ عكاز أسود من الآبنوس ذو رأس أخضر، أهتدي بخيط شعاع بالٍ ساقط من عمود إنارة شائخ مثلي. وصلت للجدار فألقيت نظرة على النائم بجواره دون حراك، ثم أزحت الباب المشمع الذي يكاد ينفك من لينه، كستارة ساترة لثبدل الراقصة بذلتها خلفها. وجدت الجدار خاليًا من أية قصاقيص وأوراق، بيد أن مجهولًا حشريًا يلملمها أخر اليوم، لا أظن الرجل المسكين يقوى على فعل ذلك! رأيت سلك الضوء الأخضر النحيف الذي أوهم شنودة المكوجي بظهور العذراء، كان مطفيًا كما أردت فخربته، ثم أغلقت المشمع من جميع الجهات وعلقت لافتة تفيد غلق الجدار أيامًا للصيانة.

كل الأسماء المذكورة في الأوراق البيضاء التالية مستعارة وغير حقيقية، وإن كانت الأحداث حقيقية، عدا اسم واحد فقط!

الراوي العليم

ورقة بيضاء 1

لن يُفيدك ذِكر اسمي في شيء، ولا دخل لك بذلك، بل الأليق برجل مثلي باله قصير وخُلقه ضيق ولِسانه طويل وحزنه عميق، أن يرد عليك دون وخزة ضمير واحدة: "وأنت مال أمك"، لكن تجاوبًا مع المبدأ القائل بأن الأسماء عناوين البني آدمين، اعتبرني آخر أصحاب الأسماء المركبة في حيِّنا وأطلق علىّ "الراوي العليم".

خرج للتوّ اسم "الراوي العليم" من مخزن عقلي الباطن. أول مرة سمعته في ندوة منذ سنين للكاتب ذي الألقاب المتعددة فلان الفلاني، حين أكد أن السرد على طريقة الراوي العليم أصبح موضة قديمة ومآله إلى الزوال. لم أحضر يومها لأنني من المتيمين به لكن لأنني صاحب المطبعة الذي خرج كتابه منها قبل الندوة بساعات قليلة، فأحضرته وبقيت لأسمع. وكان الأوغاد في الكار من حولي يتهمونني بالغيرة والحقد على أهل الألقاب؛ لأنني توقفت عند الشهادة الإعدادية فلم أنَل أية ألقاب ينفحني الناس بها. وكنت أرد عليهم بعد فاصل من الشتم أن المفكر فلان الفلاني بالكاد حصل على الابتدائية يا جهلة. نسيت اسم الكاتب الذي كان يتحدث يومها، ويبدو أنني على بُعد خطوات قليلة من داء ألزهايمر، وأرجو أن يمهلني قليلًا حتى أنتهي من تلك الأوراق التي تحاوطني الآن من كل جانب.

قديم بقديم اخترت أن أكون الراوي العليم؛ لأتخفى وراءه وأحتمي فيه، فما أحتمل في عمري الطاعن هذا المُساءَلة والسين والجيم،

بل والسجن بعدما أعترف الآن أنني أكبر مزور كتب في الحي. ومن لؤم التدبير أنني لم أكن مشهورًا عند أصحاب فرشات الكتب إلا كوني أشهر مطبعجي في زمني، أما فيما يخص الكتب المزورة فكانوا يتعاملون معي عبر وسطاء كديلر المخدرات فلا يعرفون مَن وراء هؤلاء الوسطاء. وبرغم أنني كنت الأكثر إنتاجًا وتوزيعًا وربحًا، فالذين يعرفون من أكون لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة، وذلك يعطي لهذه الأوراق التي أكتبها الآن مزيدًا من الراحة في البوح، بقدر ما بها من الاستبياع. ولا أتذكر أن أحد معلّمي أو صبيان شغلانة التزوير قد قضى يومًا واحدًا في الحبس، لكنني لو ألقيت بالحذر في قاع النهر، وأعلنت عن اسمي، سوف أروح هدرًا، وسرعان ما يقفون على أشبارهم وينتبهون من بعد طول شبات فيهم عنتر لحمل سيفه، ثم يأتون ليجمعوا بين معصمي بالأساور.. فات المعاد.. فلست بعد كل هذه الأطنان من الصياعة المحمولة فوق كتفي أسمح أن أقدم نفسي كطبق مخلل فوق مائدة عامرة تروح وتجيء عليه أيادي الأكيلة.

ورقة بيضاء 2

شحذت همتي على الكتابة، لكن من الفطنة أن أبعد عن الشر وأغني له، أو على الأقل أدندن له على قدر بَحّحان صوتي وانصراف صحتي. لذلك لمعت في دماغي فكرة اسم الراوي العليم، والأهم أنني حقًا وصدقًا الراوي العليم في كل ما سأقصه وسأحكيه.

لم يخطر على بالي طوال السنين التي وقفت فيها أمام مكن الطباعة والتنسيق، أنني سأحيل نفسي على المعاش في الستين،

السن نفسه الذي تحدده الحكومة للعاملين فيها، وأنا لست منهم في شيء. صدفة بحتة، معاش اختياري، وإن شئت قل اعتزال المهنة، بل الحياة كلها. لم أكن يومًا متعلقًا من عرقوب حكومة أو خلافه، كنت على باب اللّه منذ انطلقت في الشارع أقلب رزقي حيثما كان، حتى استقرت بوصلتي بين المطابع، واحدة تلو الأخرى، ومن يد أسطى لآخر حتى صرت أنا الأسطى الأول المشهود له بالبراعة ومعلم الشغلانة. أقصد شغلانة الطباعة، أما تزوير الكتب فقد بدأتها بعد تقاعد أغلب الأسطوات الذين علموني، ليس لأنهم أبرار أطهار، فلهم خطيّاتهم ولي خطيئتي. فمثلًا هم كانوا يسرقون من النصوص ويقصون منها ما يرونه منافيًا للدين والآداب العامة، بالاتفاق مع ذور النشر الذين يتنصلون من الأمر إذا اكتشفه الكاتب ويلقون التهمة على المطبعة. وأوقات أخرى كانوا يقومون بدور الواصي الأخلاقي من تلقاء أنفسهم دون أن يطلب منهم أحد. قطعًا كانوا يفعلون ذلك وأناشيد الورع تحاصر آذانهم وتشعرهم بذواتهم التي تعانق الفضيلة وتغوص في المكارم، بينما هم في الحقيقة معتدون شراق. أما خطيئتي فهى تزوير الكتاب دون المساس بمتنه، لكن في جودة وثمن أقل يجعله متاحًا للجميع. ساعتها كنت أُجمل الخطيئة بتبريرات كأثمان الكتب الباهظة والمساهمة في أن يصل الكتاب لكل فرد، لكنِ لم ألبس ثوب الفضيلة أو أصعد منبرًا. مارست هذه الخطيئة لعقود وتكسبت من ورائها المال الكثير الذي وإن قلت الآن قيمته في نظري وزهدت في البغددة به، لكن لا رغبة لديّ البتة في خسارته ومعاشرة الفقر من جديد. بيد أن القهر لم يستطع تهوين فاجعة الفقر في قلبي.

أنا الراوي العليم الصعلوك السبعيني الجالس أغلب وقته في البلكونة، الاختراع الأهم من الإنسولين وأحلى من المكرونة وألذ من مواعدة قطة سيامي تأكل جيبك وتهريك خربشة. سافرت أيامًا قليلة إلى البلاد الساخنة كدت أجن فيها لغياب البلكونة، إن وُجدت هناك بالكاد شريحة نحيفة تجعل من الصرصار ديناصورًا ملء مكانه، بيت بلا بلكونة هو جثة بلا روح. أجلس في البلكونة بالساعات أتابع الذاهب والعائد. أمارس فضولًا يجري في وريدي لفض المخفيات، ثم أتركها لأجلس في المقاهي البلدي؛ خصوصًا مقهى المعلم بسيط عبد الهادي، التي يضرب ناصيتها الهواء من كل الجهات، فكأنها محمية طبيعية للرواقة وتجديد البال والدماء. أو في أويقات المزاج أزور المقاهي الأثرية التي كان اسمها في زمنها الأول على لافتاتها بالفم المليان بارات، تلك المنتشرة في أرجاء الشارع الأوسطي، ذوات الكراسي الخشبية الأنيقة، والمفارش المنقوشة بعلامة البيرة الشهيرة، فضلًا عن جدرانها التي تفصل بين الأزمان، والرواد الأجانب من اللحم الأبيض الذي يغسل عين مثلي الذي لم يتبقَّ له سوى العين!

كنت صغيرًا يتيمًا حين نزلت إلى الحي قادمًا من بلدتي، فأخذت عيني هذه المقاهي، بهرتني وجرّى روادها ريقي، ألسنة الناس في الحي ككرابيج النار وعيونهم تفوح بالأذى. هربت من بلدتي وأمارات اليتم التي يتركها أهلها في داخلي، فاقت طريقة الناس معي العطف إلى الاستضعاف، وراح جدي إلى التضاد بالقسوة الشديدة، وحين استعطفته ستي وقالت: "بزّاحة على الولِد لسه صغير خف عليه

شوية"، فأجابها بصوت جهور غير عابئ بوجودي في الجوار؛ بالمثل الذي يتخذه ذكرًا وتصلية: "اللي يصعب عليك يفقرك.. أنا عايزه يطلع رجل". وضاق بي الركنان؛ الاستضعاف والقسوة، فسحت في الأرض في غبشة الليل حتى وصلت إلى الحي الذي رفضت أن أكون فيه وجبة سهلة المضغ، واخترت عن إصرار وترصد التوغل في أركانه وشوارعه ومقاهيه، أدبُ مكان ما أحب، ارتميت في أحضان الحي لأربعين عامًا كاملة، عرفني كل أهل الورق معرفة الخبز ساعة الجوع. وتركت بصمة تيزي فوق كل كرسي ومسطبة على ناصية أو في خُنّ وغرزة، حتى أثبتُ لنفسي ولمن استضعف وقَسَا أن اليتيم هو من ترك روحه في أيادي العبث وإن كان أبواه أحياء!

ورقة بيضاء 4

في الأوقات القليلة التي عاصرت فيها أمي قبل أن يحملها العريس الغني إلى موطنه الحار وتنساني؛ كنت أسمعها تقول: "داري على شمعتك تقيد"، فتزيد عليها ستي المكلومة منذ مصرع أبي "الساكتين في نعيم". يبدو أنني خزنت عظاتهم في مخي بدافع من طبعي الذي تكشف فيما بعد، واتضح أنني مغموسٌ في غموض لا ينقطع، وتكتُم يليق بساكن في أحضان العدو، لكن الإنسان سجين طبعه. فذلك الغموض لم يُحِلني إلى شخص انطوائي، على العكس أجدت في شراء كل ما لدى من يحدثني وبيع له ما أريده فقط. ضربت سورًا شائكًا من نار حول حياتي، وتركت حكايات عربدتي تجري على الألسنة دون إثبات ولا إنكار، الضحكات والسبّات واللعنات كانت الرد الوحيد.. أملك فن الردود المحيرة، حتى إن عمال المطبعة وصبيانها لم يعلموا بزواجي إلا قرب دخول ابنتي الكبرى إلى مرحلة الابتدائي.

ساعتها كادوا يُجنون، همهموا وبرطموا ولم يستطيعوا مواجهتي، يعرفون بجاحتي، كنت سأنهال عليهم بالماليات؛ "أنت مالك ومال أهلك ومال أمك ومال اللي جابتك ومال اللي خلفوك"، كلٌ حسب نصيبه. أطلقوا عليّ ملك هذه الردود التي تقضم محاولات التطفُّل في مهدها، هكذا أنا الذي كنثه، ولا زلث!

الذين يعرفون عني هذه المعلومات إما سافروا خارج الحي وإما بجوار ربهم، والحاليون في الشغلانة أولاد البارحة علوق لا يعرفونني أصلًا!

قضيت عمري طوله وعرضه كما جرت مقاديري، ومضيت أتأرجح بين الصعود والهبوط. وبرغم النعيم الذي ذقته لم أتذوق نعيم الرضا! استعنت على الأيام بصديق وحيد وفي، هو كمال عزازي. عرفته منذ أيامي الأولى في الحي، ما محبة إلا بعد عداوة، كان لقاؤنا الأول شجارًا عنيفًا شججتُ رأسه وكسر أنفي. ثم من بعدها كفلنا التلاقي على أكمل وجه، كالسيف ومخدعه، صارت نظرة من أحدنا تُغني عن الكلام الكثير. وخُفرت بيننا قناة من الأسرار لم يمسها الخجل. وفطن كل منا أن وقاية هذه الصداقة بألا يحاول أحدٌ منا سحب الآخر إلى عالمه ودوشة طبعه، فبقي كمال يميل إلى الاختفاء عن الصخب والجمهرة، وانفتحت أنا على مجتمع الورق كما لم يفعل أحد من قبل. جالست الوزير والغفير، وتسامرت في الليالي الطوال مع أصحاب دور النشر والمكتبات، وانصهرت وسط المثقفين والمهتمين والقراء؛ بغير أن يطولني الشك أو يتصاعد في أفقي دخان ريبة. كنت أحضر الحفلات الرسمية لانطلاق الكتاب كمدعو، وفي الوقت ذاته هناك في المطبعة السرية، يقوم كمال بمباشرة عملية تزوير الكتاب نفسه

وتقليد غلافه؛ تمهيدًا لتوزيعه على فرشات الكتب المنتشرة بطول الشارع الأوسطي بواسطة آخرين لا يعرفون عني شيئًا، وبالطبع كانت من ضمنها فرشة كمال عزازي نفسه!

ورقة بيضاء 5

لسنوات طويلة في طقس شبه يومي جمعتني بكمال طاولة هواؤها بحري، تطل على الطريق في مقهى بسيط عبد الهادي. يطقطق كمال ما تفتحه بوابة رئتيه من أحجار القص والمعسل، بينما أنهش نصف علبة من السجائر ذات العبوة الحمراء الطويلة المستوردة، تركت المحلية الشعبية البشعة واستعذبت هذا النوع الفخم في غمرة ركضي إلى النهوض في كل شيء. خلعت عني الجلباب وارتديت القميص والبنطال وكبلت عنقي بالأربطة على كل شكل ولون. حرصت على تعليم عيالي في أعلى مدارس الحي، لم أغلظ عليهم إلا في التعليم. واستندت على ما علمته من تعليمي البسيط الأول لأتقن اللغة الأجنبية، فزاد وزني وعلا صيتي في الوسط بالقدر الذي فتح أمامي الأبواب بغير أن يستفز أحد لنقب جداري! بينما اتبع كمال طريقة الطفو فوق الموجة تحمله كيف تشاء، بلا أي تخطيط هام على وجهه تسوقه القناعة المغفلة. حاولت ألا أتركه لحاله لكن الرغبة في النهوض داخلية، تستمد طاقتها من صحوة صاحبها. كان يتكسب الكثير من المال من مشاركتي في أعمال المطبعة السرية بجانب فرشته التي تشغي بالطوافين. لكن سرعان ما يضيعه كله على مشاريب المقهى ومجاملة من يسامرونه كأنه كفلهم، والحشيش الذي أذهل نظراته بعدما تقلقل النني في محجره من كثرة التعاطي. أضف إلى ذلك تنطعه في مساعدة الرائح

والغادي بداعي الجدعنة، والعطاء الأهوج الذي حول دفة الفقر من يد السائل إلى يده. حينها وجدتُني أتمثل في صوت جدي حين أرهبتني خشونته وأقول لكمال "اللي يصعب عليك يفقرك"، اترك شيئًا للزمن، فلا يبالي ويندس في أيامه يحمل السر ويبدد حياته على أكمل وجه. ولولا مجاورتي له ما لقي قوت يومه في كثير من الأيام. لتآلفي مع كمال عزازي دون غيره سر غامض كالروح، لم نفقه تفسيره وإن عايشناه بتفانٍ وبغير اكتراث لفضه.

قد يُنتقص الود بفض سره.

بانت بوادر الرغد وجذبني النزوع إلى الاقتناء، فحُبت معارض الأنتيكات كالمسحور، أجمع ما يسد ثغرات انتشاء غير مفهوم، يمسني بمجرد النظر إلى التحفة. وعرفت السر عندما استدعوني إلى بلدتي لدفن خالتي فقضيت ليلة خامرها السمر مع أولاد العمومة والخالات، فأخبروني أن أبي كان مولعًا بالآثار، يترك ما وراءه وأمامه ويسافر أميالًا لزيارة المعابد ومشاهدة الآثار والجبانات. لكن قرأت في وجوههم غمزًا ولمزًا وكلام يوشك أن ينزلق من الأفواه ويمنعه الحرج، فتصنعت التغافل بينما وقر بصدري أن الأمر يتعدى الحب والتعلق إلى المزاولة المريبة، وهي ذات علاقة وطيدة بموته المبكر.

وراق لي معرض بديع زهران للأنتيكات من بعد طول عَسّ وفرجة وتمشيط. وجدت فيه مِزاجي من التحف، تشكيلات الإنارة الأنيقة وتماثيل الفتيات الواقفات بدلال واستعلاء، وتمثال الرجل البدين ذي العدسة الدائرية التي تقطر من عينيه الحكمة والتخلي. دخلت دائرة بديع زهران سريعًا بقطرات لسانه المأخوذة من المنحلة، ورحابته

في استيعاب تخيلي، وطمعنا الرأسمالي الذي شملنا، ومهارته في استجلاب المنقوص في المعرض؛ حتى إنني دوخته لعامين وراء تمثال الحصان الرامح، قطعة من التحفة أكلت عيني، الحصان يرفع قدميه الأماميتين أثناء رمحه بينما فارسه يمسك لجامه في تحدٍّ وشموخ. لم يهمد بديع حتى أحضر التمثال كما شاهدته في مخيلة رأسي، حينئذ كنت أتصور أنني الفارس وهذا حصاني. ها هو التمثال أمامي الآن ساكنًا بعد طول رمح ينتظر النهاية.

ورقة بيضاء 6

التقاء كمال عزازي وبديع زهران يماهي التقاء قضيبَي القطار، إذ لا التقاء!

كمال صعلوك تام وفوضى مجسدة تمشي على قدمين، وبديع آخر "اكسلانس" في الحي، تاه من يد الزمن ثم عثر عليه الآن. الليلة التي عزّفتهما إلى بعضهما البعض كانت ليلة مهببة. جانب من المزاح المتجاوز مارسه كمال في سلاسة الكلام العادي، ربما وجودي جعله يزيد العيار اعتقادًا أنه طالما بديع صاحبي فبالضرورة سيتقبل كل أنواع المزاح. لعله شم رائحة عدم الوفاق فساق الهبل على الشيطنة كي يقطع الوصل في مهده. لم يسكت بديع وأوقفه عند حده بالقول الحازم المبطن بالإهانة. شخر كمال وسبه دفاعًا عن كرامته أمام مريديه في المقهى، إذ كيف يرون كفيلهم اليومي يُهان، خلع بديع أستقراطيته من فوق جلده وقبض على كفه يلكم كمال، الذي صرخ إثر دم ينهمر إلى أسفل رقبته وكسر حل بعظمة أنفه.

كنت أشبه بالشحم الذي يلين التروس، والمِفصلة المرنة بين

سطحين تيبّسا من العصلجة. أملك وجهَي الفوضى والهندمة بالدرجة التي تُمكنني من معاملة كل منهما وفق طبعه، وللحق فمكانة كمال عندي لا مساس بها ولا يقترب من رتبته أحد. اعتدت عليه طفلًا كبيرًا تحايله أمه كي يقتنع بألّا يخرج من البيت بالملابس الداخليّة. كنت أعامله بهذا المنطق فيمسه انبهار يعيده كل مرة كأنها المرة الأولى، ثم يقول لي بطريقة راقصة محركًا كامل جسده المائل إلى النحافة؛ يا بن الهرمة يا صايع!

ذات نهار هاتفني بديع بصوته الرصين وترحابه المعتدل، ففطنت لوجوده في المعرض، فقد نوى منذ اليوم الأول ألا يسحب من مقدار مهابته وسط صبيانه شيئًا قط، ولكن زاد على الرصانة نبرة تردد كأن لسانه ملسوع:

- كمال فين؟!

- غريبة.. من إمتى؟!

- واللـه لولا يحيى ما كنت عبرته ابن المرا!!

- خير ماله يحيى؟

- يا سيدي واخد من العلوق أخواله كل حاجة.. خد من واحد المزيكا وخد من التاني الشطرنج.. والاتنين مسافرين.. بيكسب طوب الأرض في الشطرنج بس عنده مسابقة فيها عيال شداد.

- وطبعًا انت عايزه يلاعب كمال؟

- ابن الكلب ولا نابليون في زمنه.. شُفته بيكسوح الكل في القهوة.. اتعلمه فين ابن القردة ده.. بيغلب الحي كأنه بيشرب حجرين.. أحسن

تدريب ليحيى إنه يلاعبه، وإن كان لك عند كمال حاجة قولُه يا سيدي، لامؤاخذة يا صاحبي إنت عارفني صريح.

- غالي والطلب رخيص يا بديع.

- بس بقولك إيه اتكفل انت بالموضوع كله أنا مش عايز أمسك فيه تاني..

- ما تشلش هم، ابعت لي يحيى في أي وقت.

ورقة بيضاء 7

كان يحيى بديع زهران وقتها في الثامنة عشرة من عمره، لتوّه التحق بكلية الهندسة. شاب يقظ متعدد المواهب، مثل أبيه معتد بذاته، وإن كان شعبويًا وبسيطًا أكثر منه، يهتم بالشأن العام فيما يهمله أبوه تمامًا. ضاقت طفرات النباهة بحيز عينيه فخرجت تُرشد الرائي عليها. والحق أن كمال لم يأخذه ظلمًا بجفاء أبيه، بل أثنى على ذكائه في اللعب وأخبره متحديًا الجميع أنه بقليل التمرين لن يأخذ أي منافس في يده غلوة. ثم قال والظفر والفخر يتمددان على صفحة وجهه: "أخيرًا وجدت خليفتي في الملاعب". لم يعط كمال هذا اللقب لأحد من قبل، برغم توهم الكثير من مدمني الشطرنج المتحلقين حوله ذلك. وجد في يحيى قائدًا وليس مجرد لاعب، دماغ ذرية، وأعصاب باردة، وخطط بأكملها منقوشة في رأسه. تأكدت فراسة كمال حينما عرف أن يحيى كون فرقة موسيقية صغيرة هو قائدها، أسرّ لي في إحدى الجلسات بأن يحيى سيفوقه في الشطرنج عن قريب. محبة كمال للشطرنج تجعله مستعدًا للحديث عنه طوال النهار والليل. يأخذه مأخذ الجد، يجد كيانه

الضائع فيه، وتتلبسه أرواح القادة والأباطرة هواة الرقاع العابثين بالعساكر والملوك والأفيال والجواري والشعوب. تتضخم ذات كمال عزازي فقط عندما يلعب الشطرنج وحين يعتلي امرأة، بينما دون ذلك يغالي في التواضع لحد الغوص في الضآلة عن طيب خاطر.

ما أعجب حياة القلوب! وما أجهل الواحد حين يظن أنه مَلك ولده لأنه ولده، برغم ما يتسربل في جوفه من قلب مغاير عن قلبه!

حدث ما لم يأتِ بخَلَد بديع زهران، أحب كمال يحيى حبًا شديدًا، وتعلق يحيى بكمال أيما تعلق، وجد لديه ملاذه الشعبي الذي كان يستنكره عليه أبوه. فاتت على بديع وهو الزاعم بأنه لا تفوته فائتة. أوصل الطاقة المعجونة بحب الشارع بحارس الشارع العتيد، فتخطت الصلة دورَيْ شطرنج كانا سيجمعانهما والسلام إلى ألفة معتبرة، واحتضان كامل، واحتواء بالوقت والمدد والفكر. واللافت أنه كان يعطيه من وراء ظهري الكتب والروايات بنسخها الأصلية، رغم أن المزور منها يقف إلى السقف في مخزن المطبعة السرية. ارتضى كمال عزازي الأفضل ليحيى بأبوية خالصة، رغم أنه يسوِّق الأسوأ للرائح والغادي أمام فرشته في الشارع. وقتها لم يكن كمال أبًا لأحد لكنه مارس تجاه يحيى أبوة لا حد لها في العطاء.

تشبع يحيى بفلسفات كمال عزازي العامية بالكامل، "كالمليان يكب على الفاضي"، "وكلها شغالة مع كلها ماحدش شغال عند حد"، "ولو كلمت الناس برفعة مناخير يدوك على قفاك يجبوها الأرض". غذى هذا الكلام بشكل غير مباشر عند يحيى نبتة اشتراكية جادة غريبة عن نشأته، في بيت مغموس حتى أذنه في الرأسمالية.

اغتاظ بديع من الفجوة التي تتسع بينه وبين ولده في سرعة مذهلة. لطالما وصفه في أوقات تعنيفه أنه زرعة شيطاني. كانت مشاركاته في الوقفات الاحتجاجية مع فئات أقل منه يعانون شظف حياة ما لا يُعانيه؛ تقضُّ مضجع بديع، تلدغه في أم رأسه، إذ كيف أن ابنه الوحيد لا يكرره، فضلًا عن كونه يهدد أحلامه في التقرب إلى السلطة بصفحة سليمة من الثقوب.

التقط كمال خيط اشتراكية يحيى وغزله بالكتب المؤثرة، حتى صار رجلًا من رجالها يدافع عنها عند كل مفرق. وإن بدا وسط أقرانه غريبًا عن الزمن إذ خالط الرأسمالية فى كل ما حوله، لكن يُحسب له الثبات على ما يعتقد أنه صحيح. لا شك في أنني كنت أميل إلى كفة بديع. ولطالما تشاجرت مع كمال حول هذه الأفكار حتى من قبل أن يحتل يحيى كيانه. اعترضت على ما يعتقد وقلت له إن الاشتراكية وهم ذهب إلى قاع المحيط، وأن الرأسمالية هي الحقيقة الظهيرة للنعيم، بدأت منذ عقود ولا نزال نرفل في طرحها البهيج.

ورقة بيضاء 8

حاولت مرارًا إثناء كمال عن التوغل في القرب من يحيى، فلترجع هذه العلاقة إلى ما قبل دور الشطرنج. لكن إضاءة الألفة بينهما قد أنارت عتمتهما الداخلية، حتى أصبح من الصعب إطفاؤها. حمّلني بديع جزءًا من الوزر. وساءت العلاقة بيننا بعدما اتهمني بالتعريض لصاحبي، بل ومشاركته في تحريض ولده عليه. يبدو أنه في غمرة غضبته يخلط الأوراق، وحسبني على الفريق المتخذ للشارع وطنًا وسكنًا بينما أنا ضمن فريقه متخذ الشارع سلعةً وبضاعةً. ولولا أن

بديع لا يفقه شيئًا في الطباعة وسوق الورق لحاربني أشد الحرب. هذه عادته في العداء. له ضحايا كُثر، باعوا معارضهم ورحلوا قبل أن يتبين أن المشتري الحقيقي هو بديع زهران. علمت أنه يفتش ورائي من باب العثور على أي ثقب لا من باب اليقين بوجود الثقب. هجرت المطبعة السرية وقتًا قليلًا حتى تقلمت مخالبه واستسلم بأن القلوب بين يدي اللّـه يقلبها كيف يشاء، فاستعوض اللّـه في يحيى، وكلما تذكر أن أمواله ستذهب أدراج الرياح فور موته تقلص باطنه، وساورته خيبة أمل سرعان ما استحالت جبروتًا يجوس في الأرض. تيبست في أعماقه فكرة أن الحياة تعانده بعدما ماتت ابنته القريبة منه بالمرض اللعين، فقرر الانتقام من العناد بالانغماس في كل لذة حتى يثمل، وأسرع الخطى نحو السلطة يقبل الأحذية ويلعق العسل.

كان جلوس بديع تحت قبة الحي المهيبة للمرة الأولى يومًا مشهودًا، أحب ذاته فوق كل ذات، واندفع في دنيا المال والجاه كالمسحور يلعب دور الأبتر بإتقان، إلى أن جاءه اتصال ذات أصيل من قسم الشارع الأوسطي يخبره أن يحيى محجوزٌ ضمن مجموعة من المتظاهرين، فكشفت هويته عما تكتّم أبوه عنه، لكنه استطاع بما ملكه من نفوذ إثبات أن يحيى كان عابرًا للطريق صدفة وقت الضجة فقُبض عليه بالخطأ، وتم إخفاء الملصق الأصفر من فوق ملابسه الذي يعد حرز مشاركته في المظاهرة. انتشر الخبر تحت القبة وبدأ التلسين على بديع لكن سماكته تفوز دائمًا. كانت نظرات أقران يحيى المستهزئة والحاقدة تشوي باطنه، بل عدّه بعضهم دخيلًا خائنًا. كان أهون عليه أن يُحبس مثلهم عن الخروج بهذه الطريقة. يومها أتى إلى كمال مرتبكًا يغالب دموعه، إذ كيف يظن فيه

أصدقاؤه الظنون المسيئة وهو أخلصهم وأبسطهم وأكرمهم وقتما تطولهم الفاقة. ساعتها تعجبت لكمال أشد العجب إذ اكتشفت أنني لا زلت أكتشف فيه الجديد، وجدت ذلك المتمرد بالسليقة يحث يحيى على الاستكانة والكف عن نهج الطرق الصدامية التي تعرضه لمثل ما تعرض له. وللعجب تخطى خوفه عليه مقدار التمرد المخزون بالكوم في كيانه. منذ تلك اللحظة كففت عن التعرض لعلاقتهما أو إلحاحي على كمال لإنهاء علاقته بيحيى.

كمال عزازي أعصاب يكسوها الوجدان لا اللحم.

ورقة بيضاء 9

بات كمال كالمحطة التي يركض يحيى فوق رصيفها ليلحق بركب المشورة والطمأنينة. حفظ أوقات جلستنا في مقهى بسيط حتى عرفه روادها كأنه ضلعنا الثالث غير الدائم؛ الضلع الذي يأتي إلى الحوض عطشانَ فيذهب مرويًا، يهرب من غربة أب الدم إلى وطن أب الحياة. ذات ليلة جاء يحيى مكبوس الرأس مربوك الحواس، تصعد الكسرة على جفنيه ويجوس الشجن في وجهه المنمق في استباحة غازٍ. لكن بدا من تكتُّم ثورته واختلاجه أن الأمر هذه المرة بعيدٌ عن أبيه، حدّست بخبرة رجل وقتئذ كان قد تجاوز سن النبوة؛ بأن أنامل أنثى خدشت قلب الفتى. نظراته تجاه كمال كانت تستجديه أن يخلو له، لقطها قبله، فاخترعت مهمة عاجلة، وقمت لإتمامها في الجوار منهم، لا يبعدان عن ناظريّ وأنا على يقين بأن كمال سيخبرني بصدق حدسي.

ليلتها لو كانت الهواتف الذكية تسعى بين أيدينا ما كان يحيى

استغرق وقتًا كثيرًا في وصف معذبته؛ كان بسحبة إصبع أراه إياها، فأغناه عن استقلال مركبة الخيال الآسر. ومن مقعدي القريب لمحت انديا‌ح النشاوة على وجه كمال لما يسمعه من أحوال الغارق في الولع. وزاحمت الفرحة فوضى المشاعر المرتبكة فوق الوجه الأسمر أن ابنه وقع في الحب، وسرعان ما انفرد التأثر بوجهه، واستقلت التقطيبة بجبينه، وحصدت عينه الشفقة؛ إذ فطن أن عذاباته فرادى ذات جناح واحد، يحبها يحيى من طرف واحد كما يقولون. وما أتعس مُحبًا لا يجد بريقه على وجه حبيبه!

غادر يحيى هائمًا دون سلام. شدني وجهه المشدوه من أثر البوح. أطرقت بأن ملامحه الآن دليل على منطقية توأمة الروح الحاصلة بينه وبين كمال. لا يلائمني البتة فلسفة الأمور على هذا النحو العاطفي، فسرعان ما تذكرت أن التوأمة الحاصلة بيني وبين كمال غير منطقية بالمرة، فعدلت عن هذا التفلسف وعدت إلى الطاولة. كان كمال لا يزال ينغزه الوجد بما سمع من بلاء العاشق. شد نفسًا غاضبًا من ولعته المتأججة وشرب كوب الماء المثلج على وصلة واحدة. ثم سألني:

- تعرف إبراهيم نجم؟

- مش ده المترجم الكحيان اللي كل ما حد يكلمه يقولك الكتب المزورة خربت الدنيا!

- بس مترجم شاطر وإن جيت للحق إحنا وغيرنا شامطينه.. متسليين على كتبه بزيادة إكمنه غلبان.. كُتبه مالية الجُحر عندنا وفرشات الحي كله..

- ده ساكن قريب من هنا كمان.. عند ميدان سيدهم باشا، في العمارة اللي جنب عمارة بديع.. بس اشمعنى؟!

- الحي حلّة وانت مغرفتها.. يحيى واقع في بنته!

لحظتها انسحب لساني من مستقره وقلت بنبرة ساخرة:

- بيحب بنت الجيران.. دي أفلام عربي أم الأجنبي!

ورقة بيضاء 10

اتضح أنني مسست عصبًا في لحظة عريه، وحسبني كمال أهزأ بهما فاشتعلت جمرة وجدانه المتقدة أغلب الوقت، واهتاج كمال أشد اهتياج، واندفع يتهمني بالبرود والجبلة ثم طار برجه تمامًا فسبّني بعورة أمي ورحل.

ورثت عن ستي أم أبي حب الأمثال رغم أنني لم أعاشرها طويلًا، وكانت تقول: "اللي ربى خير من اللي اشترى"؛ لذلك كنت متأكدًا أن كمال قضى ليلته مغمومًا ينصهر. مررت عليه في بيته فصدني بطفولة ابتسمت لها وتعودت عليها، تركته للصباح لعله يهدأ. شعشعت رأسه فكتب لي خطابًا. كانت تمسكه نوبة كتابة من وقت لآخر سرعان ما تروح لحالها. وكان صوت الفوضى بداخله أقوى أثرًا من صوت المعجبين بكتاباته الذين يحثونه على المداومة. فظلت الشرارة تروح وتجيء حتى انطفأت تمامًا. في الصباح بمجرد أن وضعت قدمي في المطبعة صاح الوَلَا رشاش في أذني يخبرني أن عم كمال ترك لي ظرفًا. أخذته ورددت لرشاش الصيحة بركلةٍ بالكاد لامست مؤخرته وهو يركض فارًا.. فضضت الظرف وتهيأت للقراءة.

"بخط كمال عزازي"

"يا (مشطوبة)

بالأمس سببتك ورحلت.

لم تكن المرة الأولى، تكررت كثيرًا في سري ولاعتبارات كثيرة أجلت الجهر بها حتى وقعت الأمس. وكثيرًا ما وصفتك بالمتخشب، أي سميك الوجدان عاطفتك جامدة، والجامدون كثر. أولئك الذين لا ينبضون لزهرة يانعة، ولا يرقون لكلمة طيبة، ولا يبكون، ولا يحتضنون الأطفال إلا إذا بكوا. ويأتون القبلات بنمطية التروس، ويخلطون بين الصمت والعبوس. أنت كذلك بما تبديه من فتور. أحسك نادمًا كونك لست ماكينة. أعرفك جيدًا لكن هذه المرة فاقت احتمالي. هزأت بمشاعر يحيى وحمدت اللّـه أنه قد غادر. ستقول إنك تمزح لكن المزاح خرج ثقيلًا لأنه دهس الرقة كي يخرج. وأعلم أنك تعتقد في العاطفة الخيبة وفي الرقة الضعف، ويا لبؤس الاعتقاد! تزيد في داخلي دفقات السؤال الذي كنت أحيد عن مواجهته: كيف صرنا خليلين رغم هذا الكَمّ من التنافر؟! وحده الهلس لا شريك له إلا السر. في الهلس تتضافر الصدور في لمّ شمل الصحبة، وتغيب علامات الطبع ويطفو الاستهلاك الرخيص على سطح الجلسة. وكنت يا صاحبي منبع هلسي الذي لا يجف وكنت مَعينك الذي لا ينضب.

والعجيب أنك وأمثالك من المتخشبين تعادون حاملي الوجدان معاداة الفالح المغرور للطالح التائه، وتأسفون على حالتهم المتردية وعمرهم الفائت في عذابات التعلق والتشبث والعاطفة والمحبة

والمَغشَقة، بينما أنتم الناجحون للغاية لأنكم تتخلصون من العاطفة تخلصكم من الخراء!

صدمتني بالأمس وأنت تعلم جيدًا أن قيامتك في قلبي لن تقوم البتة، وأنت على يقين أنني أحبك.. فأرجوك لا تعاود الكرّة واحترم عاطفة الآخرين".

ورقة بيضاء 11

وقفت قدر المستطاع درعًا واقيًا أمام محاولات بطش بديع بك زهران بالصعلوك كمال عزازى، نجحت المساعى مرة وفشلت مرات. لم تُنصب له فرشة في الشارع الأوسطي لأيام، كلما نُصبت هدمتها البلدية، وحرصت على ألا تحوي فرشته على أية كتب مزورة. للحق كنت قلقًا، اختبرت أمانة كمال لكن لم أكن اختبرت عزمه، خفت أن يبوح تحت تأثير ما يلاقيه من عذابات. كانوا يجرؤنه كل كام يوم لأسباب شتى. اختلط خوفي عليه بخوفي على السر. كنت حريصًا كلما قابلته أن أفتشه ليطمئن قلبي بألا يكون في حوزته الحشيش. أذهلني كمال بانضباطه في تلك الأيام الصعبة، وتأكدت وقتها أن من أسباب التآلف بيننا رغم الاختلاف الدماغي الملحوظ هو تطبيق كلينا لمثل "الغرض مرض" كوشم أصيل في الطبع. كان غرض كمال في انضباطه ملاعبة بديع، وعدم البعد عن يحيى إذا دخل السجن إن تمكن السوء منه، في أيام شقاواته السياسية كان كمال يقضي في الحبس أيامًا معدودة على سبيل التأديب ثم يخرج لعدم كفاية الأدلة لتهمة لم تقع من الأساس!

وجد بديع بعد مراقبة شديدة أن كمال نجح في إبعاد يحيى عن

مناطق السياسة الخطرة، ولأنه في الأصل رجل ابن سوق ويزن الأمور بالمكسب والخسارة، استحسن هذا المكسب وإن جاء على يد عدوه، لكن في النهاية سيسد بابًا للدمار كان سيشمل الجميع. فكف عن ملاحقة كمال وإن جعله من وقت إلى آخر تحت ناظريه من بعيد لبعيد.

في ذلك الوقت الصعب، منعت كمال من القدوم إلى المطبعة السرية بتاتًا، كنت أقابله في المطبعة الرئيسية وسط زحام الشغل أو في مقهى بسيط على سبيل المسامرة. وعندما بردت سخونة بديع في تعقبه خاطرتني فكرة فعرضتها عليه؛ أن يسافر إلى البلدة يستكين فيها قليلًا ويُكمل نصف دينه بدلًا من أن يفقد نصفه الأول على يد بديع ورجاله. وافقني كمال دون جدال فكانت مفاجأة سارة، فيبدو أن فترة الترصد به أنهكته لحد كفه عن المجادلة ولو مؤقتًا. نظرت له بعينين مشفقتين ونصف ابتسامة مهزارة، ثم قلت:

- بركاتك يا عم بديع.. صحيح وجع القفا يخرس اللسان.. بس اوعى يكون حاجة غير القفا.

- وغلاوتك ما حد جه جنبها!

انفجرنا في وصلة من القهقهة الصافية بغير حشيش، وكان يعاندنا مجيئها منذ مدة طويلة.

عز على كمال السفر بغير وداع يحيى فرتبت لهما لقاءً بعيدًا عن عيون بديع. تعانقا بحرارة أربكتني، وأنزل كمال عليه الوصايا العشر التي تحميه من الطيش والبطش. ثم نصائح الوله والغرام والحب والهيام كي تساعده في التعامل مع القمحية التي تلوعه، فطفرت

مني ضحكة ساخرة أعقبتها بالمثل القائل: "كان العلق نفع نفسه"، ثم ختم كمال بذل المودة والدموع تغالب عينه يقول في حنية مفتورة: "عايز أما أرجع ألقيك يا ابن الكلب".

فين السنيورة؟!

ورقة بيضاء 12

لا سرّ في هذا الحي القديم المتجدد الفريد المدهش الطاهر العاهر المبارك، فالكتمان فيه فضيلة تُرتجى؛ لا تتحقق إلا نادرًا إما بالأمر والزجر، أو تحت وطأة الكوارث والمنايا. ربما لذلك يطلقون على خبرواتية الحي، الذين يعلمون السر وما أخفى، بما قُسم لهم من العلم، بالسيد فلان والسيد علان، فقد جرت الأخبار في أثر الرجال أن قليلي الكلام كاتمي الأسرار، كبار الهَمّ والهمة، يكونون الأسياد في قومهم..

ولكن أحقًا يمكن أن يكون باسل قمر سيد قومه؟! أهو مؤهلٌ ليكون ذلك؟! يذيع الطوافون في دوائره، محبُوه وكارهوه، أن الخبرواتية خسروه لفائض كتمانه وأن سكوته يكفي ليُصبح واحدًا منهم، لكنه ضل الطريق؛ بل الأصدق أنه ضل الطريق الممهد المتخيل في أدمغتهم فقط، لأن طريقه الذي توسد رأسه قد سلكه بامتياز ونجاح باهر موفور، لا ينافسه فيه أحد حتى تعجب له أقران عمره الأول الظانُّون فيه البلاهة والخَرَس.. تبدت البلاهة عن شطارة، لكن بقي الخرس يحجب وراءه طوفانًا من الأسرار والكلام.. يقف الحي باختلاف ميوله موقف الإعجاب المشوب بالريبة حيال باسل قمر رجل الأعمال صاحب العلامة التجارية (الكل في الكل).. هو من أنصار الوقوف فوق الرثرة ليعلو، يجيد لعب دور اللامُلتفت غير العابئ بكلام الناس ذو الظاهر المثلج، حتى وإن كان باطنه يغلي.. باسل ذو لحية مهندمة لا تفارق وجهه أبدًا، ولا أحد يتذكر أن شاهده

بدونها منذ ذاع صيته وعلى قدره. يملك شامة عربية بارزة، يمكن تخيله بالعباءة والعمامة كتاجر رحّال في رحلتَي الشتاء والصيف، وجاهته شرقية بحتة لا تُحسب البتة على الغربيين رغم ولعه بالسفر إلى بلادهم وفتح أبواب التجارة والعمل معهم..

صار باسل محط أنظار الحي والأحياء المجاورة لنجاحه العريض نسبة لعمره. وأثارت وحدته الفضول والتلسين، ما الذي يعوق هذا الوسيم الثري من الزواج مرة أخرى؟! زواجه الأول والوحيد، بل المعلن؛ يُقال إنها حب حياته، وجرحه المالح، ويده التي توجعه، وقد حل الفراق حل ووقع قبل زيادة رقعة الشهرة واشتعال نار علمه؛ ولذلك كان يسيرًا عليه ردم القصة عن ألسنة الثرثرة وعيون البَصّ والعَسّ، وهواة كشف الخبايا المثيرة. احتجابه شبه الدائم لم يَخمِه من القيل والقال، وفي الوقت نفسه لم يتمكن أحد في الحي الذي يتكلم فيه الهواء من العثور على أية إشاعات وشبهات تمس سمعة وسلوك باسل بك قمر..

ورقة بيضاء 13

باسل وحيدٌ إلا من أمه، مات أبوه وهو في العاشرة، وزُبَّ فقدٍ أورث عزمًا، انفتحت عينه مبكرًا على المسئولية والحياة، لم يرث من أبيه سوى ما يحفظ مقعده من الطبقة المتوسطة، لكن شعلة طموحه سبقت عمره في الضي، فصعد إلى طبقة الأثرياء بهمة ترد بصر الضرير، وذكاء رقمي حاد يمارسه بعادية رائقة كأنه الرحيق يشمه الناس، وليست منحة اختصه بها الإله.. يمتلك باسل مهارة نادرة في فتح وغلق أقفال علاقاته بمن حوله، إلا علاقته بندى نجم،

على عتبتها خرم المهارة. لا يزعم أحد، بل لا يستطيع أحد أن يزعم بأنه صديق باسل قمر طالما لم يَبُح هو بذلك، أو يصدر ما يُثبت ذلك، كالصائغ يمد بساط الود بميزان حساس.. لا يلتفت البتة، فوصل إلى سحب المجد بأسرع مما تصور أحد. كل ذلك وأكثر لم يساعده على إخفاء مسحات الشجن المبدورة فوق صفحة وجهه في كل وقت وحين، نصف الابتسامة التي تعلو ثغره تخفي وراءها خبيئة، تلهب كيانه بالحزن وتتعب أمه بالخوف عليه، لأنها كثيرًا ما حاولت عبور أسلاك صمته الشائكة، لكن دون جدوى، أغلقه الكتمان بالشمع الأحمر، وأخلص لأسراره كنبي مكلف.. وكفعل استقلالي صنفته أمه قسوة اختار أن يعيش بمفرده، إلا من أيام الجمع والأسبات يحضر للمبيت معها في البيت القديم بالشارع الأوسطي المزدحم بقلب الحي، التي رفضت تركه لأسباب تمسها، جميعها وجداني معنوي، قلل من شأنها ابنها المدفوع بالمادة.

عقل باسل يمنعه من الركون للآثار القديمة، ومظهره الموافى للحداثة واشتباكه مع الغد، يصعبان من مجرد تصوره رجل يبكي على الأطلال، ضع هذا وذاك بالتوازي مع اختباءه شبه الدائم عن دوائر الضوء وشُح طاقته في تكوين الصداقات، يكون من العجب العجاب والغريب المستغرب حرصه على الإبقاء على صحبة الخميس في مقهى بسيط بالشارع الأوسطي.. جرت العادة أن يقضي ليل الجمعة مع ثلاثة من صحبة الجامعة القديمة.. لا شك أنه يعرف من الناس ما يفوق حصى الأرض، ورغم ذلك لا يبادر بمد خيوط الصلات لتتعمق فتصير صداقة إلا عند تلك الصحبة. ويا لغرابة التحولات التي تتطرأ على الإنسان إذا مسته الرغبة! لولاه لما واظبوا على اللقاء

كل جمعة، يشدد عليهم بالحضور بلا مجال للرفض.. يتقابلون في المقهى عند السابعة ويرحلون قُبيل الشروق، يحاسب على جميع المشاريب بغير أية محاولات لإثنائه كأنه فرض عين. لا يشاركهم اللعب البتة، يتابع طرقعة الأواشيط بذهن شارد ويجذبون منه الكلام ككشط الثلج فوق الأراضي الباردة، بالكاد يرد، متأملًا ينظر إلى وجوههم كأنه يطارد طيف سراب لا يراه إلا وسطهم. يأمل في رجوع العقرب، ليجد ضآلته، أو لعله يستعيد في عيونهم عفريتًا تائهًا كان سِخريًا له زمنًا ثم تركه يغوص في الضعف!

ورقة بيضاء 14

طيلة جلوس باسل معهم يلفه سكوت قاتل وشرود باسم، تتكرر هذه الحالة كل جمعة حتى استفزت الرجال الثلاثة اللاهين في اللعب من حوله، فخرج أحدهم عن تغافله وكان أكثرهم ثرثرة وهلفطة، فقال:

- كعادتك ساكت.. مزاجك مش رايق؟!

- لا أبدًا تمام..

بَظّ المكر من عينيه ثم شرع في حفر حفرة يعرف أولها من قرارها قائلًا:

- ما تأخذنيش يعني يا باسل وخلي البساط أحمدي.. إحنا بنتقابل بقالنا شهور ودا سعادة وشرف طبعًا.. آه احنا ولاد منطقة واحدة وصحاب كليه بس إيه اللي يخلي رجل في قدرك وقدرتك اللّه يزيدك تبقى باقي علينا وتجمعنا.. وفي نفس الوقت تفضل ساكت

طول القعدة!

ابتسم باسل نصف ابتسامة ولم يُعقِّب، يخفي وراءها عتابًا مريرًا لنفسه إذ وضعها في هذا الموقف المحرج، وما كان أن يوضع فيه لولا سعيه لهذا المنحدر.. قرر عدم مجاراته في هذا التناوش كأفضل وسيلة على ردم الكلام ومنع تكراره، اختبأ خلف ضربهم بسيف الحياء، فأشار للنادل الذي أتى لأخذ مشاريب جديدة وسط نظرات عتاب وزغرات تأنيب كاذبة مهترئة من الرجلين الآخرين؛ كي يصمت الثرثار ويلمّ ما بعثره من رذاذ رذالة أسخن الجلسة..

أمسك آخر دفة الحوار يستتر وراء رصانة مصطنعة وتفذلك لا يفارق لسانه؛ ينقل الكلام إلى مناطق تزيل الزلل وتبدر المودة حولهم بعيدًا عن طيش صاحبه. فراح يحكي سيرتهم الأولى في الكلية والحي ويستعيد المواقف التي تُسيل الضحكات وتُذر القهقهات، ذهب بالذكرى إلى الجلسات والجنون وقصص الحب، كيف كانوا متقاربين، ثم لعبت الأيام بالمصائر فتناقصوا.. راوغه بسكب الماء البارد فألقى بالحطب المسعر، نبش بسن خنجر مسموم صادئ جرحًا مفتوحًا يأبَى الالتئام.. ولِمَ اللوم عليه وهو فعلها جهلًا، بينما صاحب الجرح يداوم على نبشه قاصدًا متعمدًا، بل يضرب موعدًا أسبوعيًا للنبش يجلس وسط وجوه الماضي وأمام بيت حبيبته ينزف تحت جلده دمًا تطفح رائحته على وجهه زيغًا وشرودًا، وبسمة كاذبة تساير محيطًا لا يلائمه في شيء..

لم يمنحه الرجل الثالث الفرصة ليهرب، كان قشاشًا يأكل الحروف حتى تكاد لا تفسر ما يقوله من فرط حماسته وحرارته؛ لضم الخيط

في الثغرة التي ثقبها الرصين منذ لحظات، لا تتوقف عربة سفاهته في محطات لإنزال الحوار إلى الصمت، لكنه أصرّ على الهرولة ناحية المنطقة المحظورة المحفية بالظلام، مفخخًا نفسه في حائط ملغّم من الأساس. بيدَ أنهم قد اتفقوا على ضرب ضربتهم اليوم، فسأل باسل بنبرة نبل من يُذكر المريض بميعاد الدواء فكان سببًا في تفشي الوباء:

- لسه ما حدش عرف مكان مدام ندى؟!

ورقة بيضاء 15

حشّ السؤال أحشاء باسل. ضغط بتلذذ على أوتار باسل الساخنة بأكثر مما فعل الثرثار، بدله من الشارد إلى الصاهد، ركض فوق أرض من المسامير والشوك، عروه ثم وقفوا يتفحصون سوءته. ذاق مرارة الحلق، طرق السؤال المر طرقة الختم المصدق فوق ورقة قرار الهروب. بات اللقاء خطرًا يهدد صولجان كتمانه، وكلبٌ أسود يحوم حول خبيئة صدره يريد تمزيقه لإخراجها. قرار تركه المقهى بغير عودة يُطهى في رأسه، ينتظر فقط فاصلًا بين الحكايات والانتقال لموضوع آخر لينهض هاربًا..

راحت وأخذت معها كل قلبه، أخذته ولم تُبقِ له إلا ما يعين أوردته على الحياة، باسل قمر قاسٍ طيلة الوقت، ورقيق لدرجة الهشاشة كل جمعة في جلسته تلك في مقهى بسيط الواقف أمام بيتها، بيت ندى نجم!

لن أكون لبانة تمضغها أسنان هؤلاء الخمالة الجالسين والمترجلين والساكنين خلف الشبابيك والأبواب المغلقة. لم أتوقع أن الأوساخ

الذين علفت أمزجتهم لشهور يدحرجونني لبعضهم البعض كأواشيط الطاولة التي يرزعونها طوال الليل. أرادوا كشف الورق، يظنون أن البطحة تعمم رأسي، وإن كانت تشوي أضلعي، فلا يراها سواي، جئت هنا لاصطياد أثر يقربني من الشاردة عني، فاصطادوني!

التبارد هو الحل، أية ردة فعل عصبية ستُنجح مساعيهم في استفزازي، يبدو أنهم استعذبوا نهري لحد التطاول واستئمان مكري، يا أولاد الكلب يا نماردة أنتم بالكاد ترون مد أبصاركم من الماء، لم تلمحوا الفاصل بين نهري العذب المحدود وبحري المالح الكالح الشاسع المتسع، سيحرق الملح حلوقكم..

رد باسل بثبات مستعليًا عما يُقال، باردًا كلوح ثلج تُذوبه الشمس في بطء:

- أمجد جاي النهاردة؟

- قصدك الحاج أمجد يوسف؟

- الحاج!

لم يمهلهم القدر للإفتاء والتخمين، ظهرت مقدمة المرسيدس السوداء تصطف أمام المقهى تعلن عن وصول الحاج أمجد يوسف.. لم يكن سؤال باسل عن حضوره في لحظة ظهوره إلا ضربة حظ، فما هو بولي ولا ذو قلب صوفي تعالى عن المحسوس حتى يرى المدسوس، كما أن وجدانه أبعد ما يكون عن هذه الشفافية، وتخشبه المستشري في كيانه يسد في وجهه الحُجب، بل لا يهيئه لأية تجليات من هذا النوع. لعل العقلانية المحضة الغارق فيها

لشوشته؛ التي ترفض حكايات الشوف والمكشوف. أو ما يسميها روادها بالفتوحات، كانت الدوبارة التي ربطت الصداقة بينه وبين الشيخ عمرو درويش. نظرا على هذه الأفكار من نفس الكاميرا مع اختلاف العدسات، فباسل رجل الأعمال يوصّفها بالخرافات والنصب والتخلف، بل على حد وصفه "أمسك الهواء بإيدي ليه أما ممكن أمسك الدهب". أما عمرو درويش الشيخ الأسد، الذي يهتم بالظاهر من القول والنص، ويرى الباطن قولًا ونصًا لا يُرى ولا يمكن تدبره، ومن يدعي فعل ذلك فقد شطح؛ وصفها بالدجل والشعوذة، وأفتى أن من توسل قد أشرك، ومن زعم كشفًا فقد كفرا

ورقة بيضاء 16

قفز المعلم بسيط بجلالة قدره وجهارة صوته وشخطه ونطره وزمجرته وخلقه الضيق ولسانه البذيء ومخه الضُلم وعِرقه النّفر، وبارومة دماغه التي أكلها الحشيش كما تقذفه زوجته الجديدة عند كل شجار؛ مهللًا ومرحّبًا بالحاج أمجد يوسف عمنا وخيرنا وبركتنا. يصّفُ السيارة معه بالإشارات في حماسة سايس حريف ويُمني نفسه ببقشيش محترم، تمامًا كما فعل منذ ساعات قليلات حينما وصل الباشوية باسل بك قمر الذي شرف قهوته البسيطة بمجرد حضوره.

هناك في ركن المقهى فصل حائط بين الطاولة المخصصة لأمجد يوسف وخُن الكراتين. نزلت المشاريب بطريقة آلية معتادة دون أن يطلب، يعرفون هنا ما يريده، من الشيشة المعسل إلى أكواب الشاي وفناجين القهوة، حتى صفائح البيرة الملفوفة في محارم بيضاء

تقي شر القيل والقال والعيون المصوبة نحوه بحكم شهرته الذائعة على الشاشات وخارجها حتى إنهم يتساءلون في صمت، لماذا يترك الأماكن الفارهة التي يستطيع دخولها بإشارة من خنصره، ويأتي إلى مقهى بسيط ليرتكن على حائط الخن فى طاولة منزوية؟! أهو التواضع أم حب الاختباء أم مسٌ من الغموض؟!

أقبل بسيط نحوه مرحّبًا خافضًا جناحيه، يتودد إليه كتودد البردان للشمس. بدت الزيارة متعمدة مقصودة وليست لروقان البال والمِزاج.. في حركة مفاجئة سريعة نكز أمجد الكرسي المجاور له بقدمه، فغادر الكرسي ملبسه في حضن الطاولة، ثم قال لبسيط في تؤدة منذرة:

- اقعد عايزك..

كركرت مياه الشيشة تزامنت مع كركبة بطن بسيط الذي بلع ريق الريبة البادية في الأفق، قبل أن يغزه أمجد بسكين تِلم بالإشارة بيده إلى الحائط خلفه:

- الولا خصاك في الخن ده صح!

ضياع بسيط محقق لو ظهر بهوته عليه فأطلق لسانه على الفور:

- إيه يا أمجد بيه أنت هتصدق الكلام ده بردو.. دول عالم ولاد قحبة ماورهمش غير الخوض في الأعراض..

فرق أمجد بين بدلته وقميصه بتسلل يده إلى جورب البدلة الداخلي، جذب ورقة مطوية، ثم أعطاها إلى بسيط معتمدًا على تعليمه البسيط الأول الذي مكّنه من القراءة والكتابة، فقرأها بقلب

يرتجف، وعرق الصدمة يهبط من وجهه يُملح لياقة قميصه المخطط الواسع، كانت الورقة التقرير الطبي الذي يثبت أنها ليست مجرد عاهة ولا إشاعة، إنما خصيًا كاملًا!

قبل أن ينفرد بسيط بصدمته وفضيحته جذبه أمجد ثانية إلى ساحة العَشّ الذي ما أتى الليلة إلا ليتمه، بادره كأنه يوقظ ميتًا:

- الولا راح فين؟!

- إيه يا أمجد بيه انت سِبت التلفزيون وبقيت في المباحث؟!

بتبارد ونظرة تحذير قال:

- آه بحسّن دخلي! شوف الواد ده عامل بلوة ولازم يتعرف مكانه.. وبعدين انت هتساعد عشان تارك التحتاني أكيد يا عم بسيط يا بركة.. مش بركة بردو؟!

ورقة بيضاء 17

أسند أمجد خرطوم الشيشة فوق قرصة رص الولعة الفضية، ثم أرجع رأسه للخلف في استجمام من يُعذب فأرًا، ثم عدّل هندامه وأشار إلى بسيط ليقترب، فأخفض صوته في وشوشة مسدس كاتم:

- الباشمهندس ابن اختي كان ماشي في الشارع هنا وتليفونه اتسرق.. والنبي يا معلم بسيط عقبال ما أخلص الحجر ابعت أي عرص من صبيانك يطلّع التليفون من الخن!

يا لشقاء بسيط! تقلب وجهه في ليلته الغبرة تلك عشرات المرات، لم يملك رفاهية الانفراد بشعور واحد، لا تكاد تتشرب مسامه البهوت

حتى تسلمت قسماته الصدمة، وما إن يحاول الثبات أمام فضيحة تتوعده حتى يحتله عراء لا يراعي انكشافًا. تكالب عليه الهول وبات محتارًا ألزامًا عليه الرد بالدفاع والنفي أم يسكت ويُحسب عليه رضا. لحظات جرب فيها السكرات حتى اخترق حاجزه صوت أنقذه، وقف منتصبًا في اعتداد عززه رخامته يخاطب أمجد:

- مساء الخير.. أنا المهندس باسل قمرا

أأتواضع أم الاستعباط أم الجهل بقدري وأنا من أنا على الشاشة وخلفها وعن يمينها وعن يسارها وفوقها وتحتها؟! خدعه ذكاؤه إن كان يملكه من الأساس، أيلزم مثلي أن يُعرفني بنفسه كي أعرف مثله ممن تمتلئ بطونهم بأفخم الأطعمة، وتكتظ خزائنهم من العلامات المائية البراقة؛ على كل شكل ولون.. أينعم ثقته بنفسه تطل من شراعة عينيه لكن أيضًا تتفلت من عينيه ميله إلى الوحدة التي اشتدت عليه حتى بدا غريبًا عن أقرانه الحيتان من رجال الأعمال. لم أعهد رجل أعمال أو حتى تاجرًا ابن سوق عينه زائغة، إلا على النساء، لكن ذلك الشرود في النظرات والإحساس السريع بالضجر من اللمة جدير بتلاميذ حائرين يبحثون عن ذواتهم، لا لرجل أعمال أربعيني يبرم الصفقات ويجالس شياطين المال، ويغرز الصنارة في الوحل فتخرج ذهبًا وماسًا وحبًا وفاكهةً وأبًا..

والكلام حول انطوائية باسل قمر لا يسكت صداه في جلسات نجوم الحي خصوصًا أولاد الشارع الأوسطي منهم، الذين يطوفون حولي ويتمسحون بالمايك الصغير المثبت فوق بدلتي عند كل طلة وحلقة. حتى إن الكلمة الأولى التي تُصدر وصفه في الملف الخاص

به عند المخبراتية هي "انطوائي"، ناهيك عن أن ملفه من الأساس رفيع قليل الورق وجيز السطور، خالٍ من الثغرات والسقطات والغرائب والملقات. ليس لكونه وليًا صالحًا لكن لأنه مكنونٌ متقوقعٌ داخل نفسه، ولعل غرابته وسره وطيشه يحتميان في هذا التقوقع! والحق رغم كثرة الكلام وتداوله وانتشاره، لم أتوقع مداه الذي أراه الآن. يُخيل إليّ أنه أخذ يصد ويرد في حلبة رأسه ليتأخذ خطوة محادثتي، وربما ردد بعض الأوراد التي يحفظها في صدره للأوقات الصعبة. قد أكون أغالي في الظن لكن دخوله الحذر المحتشم الأشبه بالخروج إلى النور بعد زمن طويل من الحبس في العتمة؛ كفيلٌ لسَنّ سكاكين الظن وفرد حصيرة الشك المتحيز للشر.. يبدو أن الصحافة لا تزال هوايَ الأول الذي ينافس كُرَات الدم الحمراء والبيضاء، وما يشعلل الخبر إلا الشك والشر وسوء النوايا!

ورقة بيضاء 18

- طبعًا اتفضل يا باسل بيه.. غني عن التعريف!

ثم توجه ناحية بسيط الذي لا يزال عرقه مرقه، وقد طلب منه في ودادة خُبلى بالأمر والزجر:

- يالّا يا معلم بسيط رؤّقنا بقى على ذوقك..

خرجت "روقنا" من فم أمجد تفيد "طزّقنا وهوّينا" الشعبيتين في الأداء الكلامي للحي أي اتركنا وامشي، إلا أنها في المعنى نفسه أفادت أن يصب على طاولتهم المشاريب صبًا. لم يبالغ الناس حينما أطلقوا على أمجد يوسف لقب الحاوي، بل بلغوا من الدقة مرتقىً عاليًا. كانت قدرته فائقة على الإقناع والارتجال والمراوغة التي

تناطح الذئاب، وبارع للغاية في لضم الخيوط في ثقوب الإبر، وفك المنطق وتركيبه، ورسم المقاصد كروكيًا فوق بعضها فتضيع ملامحها الأصلية. فضلًا عن ذكاء اجتماعي حاد، وبراعة في الملاعبات اللفظية تلجم من يحاوره.

- لقاءنا اتأخر كتير يا باسل بيه..

- كل شيء بقدر وميعاد!

- ونِغمَ بالله.. غلبتني ما انت صديق الشيخ عمرو درويش.. يعني العلم والحُجة كلها.

- ما هو صديقك انت كمان على حد علمي.

- لأ هناك فرق.. هو صديق البرنامج، ومش كل صديق البرنامج يبقى صديقي!

كل محاولات باسل قمر للمز وغمز محدثه، أيًا كان من هو؛ تبوء بالفشل وتخرج من فمه محشرجة قلقة، ويخرج صوته مترددًا كأنه ندم بعدما أطلقها.. برغم أنه ابن ذلك الشارع الشعبي نفسه الذي خرج منه باسل، لكن سكناته التي طالت عليه، وتقوقعه داخل شرنقة ما آلمه من أمه حين تزوجت ثانية، كان أشرس عليه من أن ينخرط في البيئة المحيطة، والتمرس على تراكيبها وإجادة الكلام بلسانها المراوغ.. تجلت غربته عن طينته ولعثمته في فترة الصمت التي حلت فجاة، استغلها أمجد ولم يقطعها ليرقب وجه باسل وخجلاته أطول وقت ممكن. شعر باسل أن لسانه ثقيل حتى في استخدام العبارات التقريرية عن الحال والأحوال والدنيا والحياة، وما يقوله

الناس هنا تسكينًا للعتابات المتبادلة أو تمهيدًا للدخول في الموضوع المقصود. عندما حاول استدعاءها عنتته لأنها لا تتسق مع أبجديات كلامه، وحين أراد ارتداء اللؤم الكلامي بالإشارة إلى صداقة أمجد والشيخ عمرو لم تسعفه صياعته، فبدرت منه مرتبكة خفيضة النبرة عادية جدًا، تنال من صورة المجد والنجاح المرسومة في أذهان كل من يسمعون عنه من وراء الحجب، بيد أن باسل برع في الاختباء خلف معاونيه المتحدثين بلباقة، وخلف صمته المرسوم بإتقان.

بسليقة صاحب رأس المال الذي تعود أن يسأل دون أن يسأله أحد، سأل باسل فى اقتضاب:

- إنت بتيجي هنا كتير؟!

في حفاوة حماسية مفتعلة وود متعمد رد أمجد:

- عمري كله هنا.. بس مش غريبة يا باسل بك إننا من شارع واحد وعمرنا ما اتقابلنا هنا.. أو بمعنى أدق عمرنا ما اتقابلنا خالص!

ورقة بيضاء 19

ضغط أمجد على دمامل باسل يفقعها، يضرب ويضمد بما علمه في ملفه من نقاط ضعف، تطرق إلى عمق مسألته في الحياة، جدارية انطوائه الحزينة. أمجد يعلم أن باسل ليس الشخص القادر على إعطاء إجابات منطقية عن الأسئلة المحرجة المفاجئة. لكنه تعمد بعثرة ثغراته فوق الطاولة ليحاصره من البداية. يرسم حدود علاقة لم تبدأ بعد، يكون تفاوت الدهاءات هو عنوانها الرئيسي، يرمي رسالة خفية من تحت البسمات، لا تفكر في مرواغتي؛ لأن مسافات

الصياعة بيننا شاسعة. فعل ما أراد من خضة البداية، اكتفى بما حفره له من فخاخ البداية فانتوى إيقافها حتى حين، أعطى أمجد للإنصات فرصة، حتى يعرف سبب مجيئه، فرد باسل يجمع شتات نظراته:

- الفترة الأخيرة بقيت أجي هنا كتير..

نظر أمجد في خبث ناحية أصحاب باسل ومبسم الشيشة لا يكاد يلامس شفته السفلى، ثم أشار بيده وقال:

- سعيد ويونس وبحر..

- إنت تعرفهم؟!

- طبعًا، مش ولاد منطقتي زيك بالضبط، يا بني أنا أعرف كل واحد في الشارع هنا وعيلته كلها من سابع جد..

رسب باسل في اختبار الألقاب وضمائر المخاطبة في غمرة ريكته، (إنت) التي استعملها باسل أزعجت أنف أمجد، فردها إليه في استهانة وصف (يا بني)، هبط صمت خاطف قبل أن يُكمل باسل كلامه:

- كلامك يأكد لي إني اخترت الشخص المناسب..

- يارب أكون عند حسن ظنك.. أؤمر؟

لو كان باسل يجيد الرد على مثل هذه العبارات لقال الأمر لله، لكنه استرسل كأنه مندوب الحجر:

- مراتي.

قالها وسكت لحظات توحي بتوقف الكلام، فأسرع أمجد بالقافية:

- اشمعنى.

قفزت الكلمة من فم باسل دون ترتيب ففتحت بابًا للقافية، لكنه أكمل يواري زيغه بمسحة من الجدية:

- مراتي اختفت وماحدش عارف مكانها.. والصراحة اتكلمت مع كذا حد منهم الشيخ عمرو اللي أشار عليّ أقولك يمكن تقدر تساعدني!

- عفريت الشيخ عمرو مش سهل خالص!

ورقة بيضاء 20

البجح المعتوه!

قالتها عيناه دون مواربة، وكتم غيظه من وصفها بمراته. هذا المخبول سائق الهبل على الشيطنة، ألا يعلم أن الحي كله يعلم أنه طلقها وتركها وخذلها ورماها بطول يده ببرود شديد، يعطي لنفسه حق امتلاك جوهرة طفشت من نذالته وضآلته، لكن لهذه الدرجة هي خطرة، ولا يستطيع المتيم بالعشق أن يستقيلا! لا أُكذب ما أنت فيه، بل مسني الألم قبلك وبعدك وأثناءك، لكن لا أستطيع التعاطف معك. لماذا أتيت لي دونًا عن الناس كلهم؟! مشورة الندامة يا شيخ عمرو، نشنت يا فالح، من أجل علاقاتي أم من أجل ذبحي، تريدني أن أبحث معك عن قاتلتي لأعطيها لك لتقتلني ثانية، لو تعلم ما في قلبي ما كنت تجلس الآن أمامي. عمومًا اختيار موفق لأنني يا أيها المغفل الوحيد الذي يعرف مكانها وأين تختبئ منك ومني ومن

الأيام. أعرف أين تبيت هي الآن يقينًا، أما أنت تشمشم على خبر أو تتمنى أن تجمعكما صدفة. معلهش يا شيخ عمرو أنت قلت الصدفة حرام واسمها قدر.. يا باسل أنت ساذج ومغيّب ومغفل، لكنك محظوظ لأنها اختارتك وأحبتك!

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ربنا يرد غيبتها.. أكيد لو في إيدي حاجة اعملها مش هتأخر.. بس ما تأخذنيش اللي أعرفه إن الطلاق تم من ساعة حكاية والدها اللّه يرحمه!

باقتضاب منقوع في الزيغ:

- الموضوع مش كده بالضبط!

شد نَفَسًا طويلًا من حجره المشتعل فأعطاه الوقت لتهدأ دقاته المتسارعة؛ ثم بدأ في وعظة معتبرة لا يجيدها إلا أمجد يوسف:

- لو تفتكر وقتها اتهاجمت من بعض الناس، لكن الظلم ظُلمات.. أنا دوري أوصل كلمة الكل وساعتها نبيل عجب هو اللي طلب يعمل مداخلة.. لكن ربك عدل وأهو شرب من نفس الكاس بعد عزله بسبب الواد والبت بتوع الازدراء.. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

بعد فاصل من نزول مشاريب جديدة كلها في خانة أمجد الذي لا يدفع قرشًا؛ تبادلا أرقام الهاتف واللهفة تنز من جبين باسل لعله يصل إلى طيفها الشارد، ثم قال أمجد بنبرة قائد بصير يحمي جنوده:

- بس لما نتكلم أو تبعت لي رسالة خلي الكلام على المتغطي وليكن بالرمز مثلًا "فين السنيورة" وأنا هفهم، وأرجوك اعفيني من

ذكر السبب، حاجة في نفس يعقوب قضاها!

أحـمـد بس

ورقة بيضاء 21

"صحيح يا ولاد الناس مقامات" جملة كاللبانة في فم المعلم بسيط عبد الهادي، يتشدق بلسان من أرهقته الحكمة وشفاه تبللت من مصمصات العبرة والتعثر. يقول يحيى بديع: "إن بسيط قذر، يقول ما لا يفعل، تجده يقفز كالقرد أبو سديري حول أمجد وباسل وعمرو ومن مثلهم، بينما يرد السلام على الدكتور فاروق سالم بفتور متشاغل دون حتى أن يرفع وجهه كأنه يخصب اليورانيوم بميتين أهله، الفلوس مقامات عندك يا بسيط الكلب وليس الناس!"

يناديه الناس بالمعلم ليس لأنه نزح إلى بندر الحي، أو لارتدائه الجلباب والعمة؛ لأ البتة، فهو من مواليد الحي في الشارع الأوسطي ولم يخرج منه، ويرتدي القميص والبنطال مثله مثل الموظفين التعساء. لكن لأنه أقدم وأشهر قهوجي هنا، بدأها صبيًا يتقاذفه معلمينه كالكرة الجلد من مقهى لمقهى ومن غرزة لغرزة، حتى بيّن كرامة، وأظهر ذكاء، ونضحت لباقته في الكلام، وخفته في التودد إلى الزبائن، وألقى اللؤم فلقف به من ينافسوه في الشغلانة، حتى عرفه الشارع الأوسطي والشوارع المحيطة، بل الحي كله. ولو كان هناك نقابة لتجار الماء الساخن أصحاب المقاهي، فلن يجدوا أفضل من بسيط عبد الهادي نقيبًا لهم، فقد خرج من تحت يديه صبيان وقهوجية ورصّاصين أحجار، وقد صاروا أصحاب (كافيهات) وأملاك فيما بعد، يمتنّون لمعروفه ويتمنون له الرضا يرضى. ولطالما حاولوا إقناعه لتحويل المقهى إلى (كافيه) على الطراز الحديث لكنه رفض

بشدة وانفعال: "ماليش في جو الكافيهات، أحب القهوة المفتوحة ع الشارع زي البلكونة الشرحة". تشيع حوله وتفوح رائحة شديدة من الريبة والعطن، تترك أثرها بسبب طريقة رفضه العنيفة هذه، وسرعان ما تأخذها الرياح لعدم ثبوت الأدلة. بينما كنت من القلة بل أظنني في ذلك الوقت البعيد أكاد أكون الوحيد الذي فارقت الريبة إلى التأكد واليقين من نشاط بسيط الفعلي! هو بِزّاوي أصيل استطاع عامدًا متعمدًا محو من ذاكرته زيارته الوحيدة في عمر الخامسة مع أبيه إلى جنوب الحي حيث جذوره، ولا يذكر أحدٌ من أهل بيته أنه حكى عن هذه الجذور، بالمدح أو الذم. قطع كل أواصل الدم الممتدة فيه، واعتبر أن دماء آل عبد الهادي كلها قد بدأت طريقها للضخ في عروقه ثم عروق الذي يليه، قبل أن يصطدم بحقيقة أن لا أحد سوف يليه!

ورقة بيضاء 22

بدأ الكلام يتناثر حول خَضيه منذ سنوات ولا يزال بعد وفاته؛ كتراث العبر التي تتناقله الألسنة، مدعومًا بالشطة من العناوين التي تُخلد كلامًا على حساب كلام آخر، فقال أهل الحي في تأثر بالغ: "الابن خصى أباه، واقتربت القيامة!"

كان بسيط متمسكًا بالجلوس إلى البنك، عبارة عن نصف مكتب خشبي من الأرابيسك يحوي درجًا ينزلق عند فتحه من أثر القِدم والعتاقة، يضع فيه حصيلة اليوم من الأموال، وحده من يملك مفتاح هذا الدرج، بعدما جرى ما جرى بات لا يثق إلا في نفسه. تنتصب المقهى تحت عمارة تقترب من المائة العام، من ذوات الأسقف

العالية؛ كذلك سقف المقهى. مساحتها بمقام دكانين مفتوحين على بعضهما، كوّنا مربعًا عميقًا كبيرًا، فارغًا من كل شيء، قبل أن تتقلص رقعته بنصبة تجهيز المشروبات الساخنة، وثلاجات العصائر والمياه الغازية وغرفة صغيرة بالكاد تحمل مبولة مُعدمة يفوح منها رائحة الصنان، وحوضًا مهزوزًا أسود، كان أبيض يومًا ما. فضلًا عن ثلاجة عبوات البيرة الصفيح التي تقدم بعد منتصف الليل للكيّيفة ملفوفة بورق شف الخرائط الذي يستخدمه التلاميذ في حصص الجغرافيا، بالطبع الجغرافيا عند بسيط ليست في غلاوة البيرة. الأهم أن ثمن ورق الشف أرخص من المناديل. ناهيك عن أن الزجاجات الخضراء ممنوعة من الأساس، البيرة غير مرخصة في المقهى. مسئولو التراخيص يعلمون لكنهم (يُصهينون) إكرامًا للعلاقات الطيبة التي تجمعهم بالمعلم البسيط؛ لذلك كان من البُدّ أن تُقدم بعدما تخف أقدام الرواد العاديين، مخافة أن يشي أحدٌ بذلك، فيضطر المسئولون لأخذ إجراءات حاسمة خوفًا من المساءلة، ذلك أنه عند كشف المستور وانكشاف الوجوه، كله سيقول نفسي نفسي، ويذوب الود كخَبَث الحديد. في المساحة الغويطة المجاورة للنصبة توجد غرفة مستطيلة أطلق عليها صبيان المقهى الخن؛ لأن لا أحد مهما كان مسموحًا له بدخولها بعد المعلم بسيط إلا أحمد بس.

كثيرًا ما تشكك أهل الحي في تردد بسيط المتكرر المكثف على شارع البحر، ولطالما رجحوا أن وراءه امرأة. نادرًا ما تجد في الحي آدميًا في حاله، لكن تاريخ بسيط يقول بأن ريالته سريعة التدلي من فيه. كاد الشك يصير يقينًا في الليلة التي عاد فيها مصطحبًا طفلًا بالكاد تم الرابعة؛ حتى تبين من غرابة الولد وغربته أن لا صلب

يشملهما، الولد تائهٌ عن الحياة تمامًا لا يعرف عن نفسه سوى اسم بلا عرقوب، فكلما داعبه رحيم بالسؤال عن اسمه أجاب في براءة وصَفّته: "أحمد بث" بسين قلبتها الطفولة ثاءً، فقست القلوب وظللوه بها تُذكره دومًا بزرعته المجهولة. وجرت طبيعة حيّنا أن الشك لا ينمحي بالكلية، اضُطر بسيط إلى تبرئة نفسه أمام الناس وامرأتيه: القديمة والجديدة بقص ملخص ما حدث بغير أن يتطرق لسبب وجوده في شارع البحر، إذ هَمّ عائدًا في دامس الليل مثقل الرأس مسطولًا إلا قليلًا، يجر قدميه فتعثر في كوم من الكلاب العليلة النحيفة يتوسد كبد أحدها طفلٌ عرف بعدما سد جوعه أن اسمه (أحمد بس)!

كفله بسيط وكبر في كنفه حتى صار أقرب الناس إليه، لم يتردد يومًا في التعري أمامه، يتقلب أمامه في أريحية مطلقة من السوء إلى الشر، ومن الادعاء إلى الكذب، دون الخوف من أن يكتب عنده منافقًا كذابًا. لا أحد يختار أهله فما بالك بعابر السبيل الذى وجدك لقيطًا فأواك. كانت علاقة ثقة مذهلة، معه سر الخن وعقل صاحبه، تكفي النظرات، بل النظرة الواحدة وسط الزحام ليعلم أحمد ما يريده بسيط.. وبرغم متانة هذه العلاقة ظلت خاطرة أنها جنة لن تبيد تسرح وتنمو وتتكاثر في صدر بسيط، خصوصًا عندما أحس أن أحمد يتفلت من عباءته شيئًا فشيئًا؛ وجد دبيب رقة وتَرقٌّ يغزوانه دون أن يعرف مصدرهما، لكنه غض الطرف ولم يعقب!

ورقة بيضاء 23

الأربعاء، ليلة الموسم السعيد، في حالة إذا أعقبه إجازة الخميس.

في الحي الإجازات الرسمية تؤجل آليًا إلى الخميس إن وقعت في منتصف الأسبوع، تقليد جديد في الحي مأخوذًا من الأحياء الساخنة. على أية حال، سماه بسيط موسم الأربعاء السعيد الذي تكثر فيه الغلة ويفوق الشغل فيه الخميس بجلالة قدره. يخرج الناس فيه للطرقات لتناسي الهم قدر المستطاع، ينفقون كلٌ وفق سعته، فرحين بما آتاهم من يوم إضافي مد عمر عطلة الأسبوع لثلاثة أيام كاملة. فيطب فوق رؤوسهم خفافيش الظلام مترجلين أو راكبين الفِسَب، فينزعون عقدًا من رقبة تتوق للنسمات الحانيات، أو ينهبون هاتفًا باهظًا من يدِ مارٌ ويفرون بعدما تلجمه الصدمة حتى عن الصياح، أو يقوم الفاجر منهم بتثبيت الضحايا في سكون العتمة وتشريطهم بقرن الغزال في الأفخاذ والمرافق؛ حتى يسلموا ما معهم من أموال وهواتف وأثمان وهم صاغرون..

حتى في الليالي التي يعلم فيها المعلم بسيط بسككه الخاصة أن الشرطة تعشش وترصد وتنتشر في الأركان؛ لم يكن قلقًا ومترقبًا كتلك الليلة. كان مكفهر الوجه، عينه محمرة تنافس محجرها جمرة الشيشة الملتهبة. ليلة ساخنة يوشك وترها على الانقطاع. أطرق يسأل نفسه في قدِر غليانه، أحقًا تستطيع الحية نرجس خيانته؟! يشك بالحدس لا بالدليل. بخبرته في الهواتف المسروقة ومما تعلمه من شركائه في شارع البحر، استحوذ على هاتفها وهو لا يزال معها فلم يصل إلى يقين ولا طمأنينة. لم يأخذ القلق راحته في صدر بسيط إلا بعدما سرح الشك في كيانه وبنى مستعمرات في قلبه لن تنجلي إلا بالدم. فاستأمن شيطانه على شكه فأورده المهالك. اتخذ قراره حتى وإن ظهرت براءتها، لن يعاشر امرأة دنسها الشك،

سيطلقها في كل الأحوال لكنه لم يتعود الخسارة!

في الخن وقعت الواقعة.

ترقب في هَمٍّ وتقلب في القلاية، ينتظر وصول أحمد بس ابنه القدري وصبيه الأوفى ورجله الأوحد وأمنه وأمانه وزراعاه اليمنى واليسرى وسنده وظهره وقضيبه المفتول! يجلس بسيط بجوار باب المقهى الواسع الذي صار في عينه أضيق من إست النملة. لمح شبحه قادمًا من بعيد، ونصف ترنح يلون مشيته، يحمل على ظهره حقيبة مدرسية سوداء منتفخة بأول غلة سرقات هذا المساء. نهض بسيط من فوق كرسيه، ثم رزع خرطوم الشيشة الفضي اللامع تاركًا إياه يسقط، ولولا أن لحقه أحد الصبيان المشغوبين في المقهى كالنحل لسقطت الشيشة العتيقة المحببة لديه وتحطمت.. ثم في نبرة زمجرة موتور فسبا قديمة متعطلة، قال في فضاء المقهى الملآن بالدخان دون أن يوجه ناظريه لأحد، ثائرًا مغاضِبًا، تتحير أهو الذي يحرس شيطانه أم شيطانه الذي يحرسه، كأنما قصَد مِن مَن سمع أن يبلغ مَن لم يسمع:

- خلوا أحمد يجيني الخن!

ورقة بيضاء 24

أكثر من يفتح عليه خياله ويحركه عقله ويتخبطه المس من الجن؛ من الرواد المتتالين على المقهى أو السائرين أو الساكنين خلف جدرانهم في البيوت، لا يمكنه توقع أن جميع أحراز السرقات الثمينة التي شرقت ونشلت في ضواحي وجنبات وما حول الشارع الأوسطي، في آخر ثلاث سنوات، راكدة مستلقية متكدسة مرصوصة

بغير نظام في خن بسيط عبد الهادي، حتى إنه لم يجد كرسيًا خاليًا ليريح جسده المنهك، فجذب صندوقًا استنكف أن يزيح ترابه فجلس على وضعه. لم ينتظر إلا دقائق معدودة حتى سمع أزيز الباب، رآه يهل ويطل، أحمد بسمرته الوسيمة التي تبرز تقاطيعه، وعينيه الساهمتين اللتين أودع فيهما طيبة موسى الذي كابد ليهدي فرعون. دخل بطوله الفارع وعوده النحيف بغير بروز العظم، هو يأكل كيفما يأكل لا يطوله الكرش، كان يمازحه بسيط بأن الكرش سيأتيه بعد الزواج.. ألقى تحية الليل المؤنوِن، "مسا مسا"، فحيّاه بسيط المتململ المتحفز المستأسد. بينما بدأ أحمد في تفريغ الحقيبة من الغلة الزاخرة لأولى ساعات الليل بعدما جمعها السراق، ثم نقلوها من يد إلى يد، فتسلّم كل واحد ثمن السرقة في التو واللحظة حسب الاتفاق المسبق، والثمن وفق نوع السرقة، ثم ذهبوا للعس والترصد حتى مطلع الفجر.. السراق لا يعرفون بعضهم البعض، ولا يعرفون أحمد أساسًا ولا بسيط، المجموعة كلها غرباء، بل إن بعضهم يجلس في المقهى محله مثل الزبائن دون أن يدروا بأن هذا البسيط هو المتحكم الأول في تحويلهم إلى خفافيش ليل، وإليه يُرجع النهب كله.. عصابة عنقودية ممنهجة كالماكينة لا يخرج ترس فيها عن مساره، ولا يعرف الأول الآخر، ولا يُسمح للآخر أن يعرف الأول.

لم يستر أحمد دهشته من الغضب المبسوط على وجه بسيط رغم غلة السرقات الوفيرة. يا ثُرى ما الشيء الذي يسطتع تكديره لهذا الحد؟! من يجرؤ على تعكير مزاجه بهذه الصورة القاتمة؟! لكن أين سيذهب بطاجن سته هذا؟! دقائق أو ساعات على الأكثر ويكبه في صحن أحمد، ويقص عليه ويروي، ليس لديه سواه، هكذا صارا منذ

وجده ورباه. اندمج أحمد في إحصاء حصاد الليلة بنفس حماسة كل يوم، متجاوزًا شرارات عين بسيط في تفاني أراجوز انصرف عنه أذن الأطفال، ثم قال:

- ليلة شقع، والعيال أواشيط مش عاتقين.. ما تصرف لهم مكافأة زي الحكومة.

ضحك أحمد عن ثغر وديع وفم منمقة أسنانه، كأنه أحد شباب الإعلانات الذين يجذبونك إلى ما يروجون له أو توشك أن تحب السرقة!

لم يضحك بسيط وهنالك قلق أحمد فسلك طريق الصراحة:

- إيه اللي مكدرك يا بساطة؟! طوب الأرض قالّي أجيلك.. خير؟!

رد بسيط بنبرة متأزمة:

- شاكك في نرجس ومش ماسك عليها حاجة ودماغي سخنانة!

- ما قبل ما تتجوزها قلتلك بلاش اتنأورت عليّا واستعيلتني..

- ما تبكتنيش بروح أمك.. مش وقته!

- أراقبهالك؟!

- لأ أنا مش باقى عليها خلاص.. بس طلاقها هيعورنى فى فلوس كتيرا!

- والعمل؟!

- ساعات أكلم نفسي واقول مش عارف من غير الولا أحمد كنت

عملت إيه في حياتي.. ربنا بعتك ليّ.. عيل جدع مش هيخلصه أكون في مشكلة وما ينجدنيش!

- أنا بتاعك.. كفاية اللي عملته معايا لولاك كنت ضعت!

- أهو جه الوقت عشان ترد لي المعروف.

- أؤمرني!

- لما الشارع يجيب دُرَفه والدنيا تليّل وكله هس هس، تاخد بعضك على الشقة، واكبس عليها بالذوق ولّا بالعافية كأنك هتبسط نفسك وشوية هطب عليكم تخلع انت في السريع وأنا أعمل البالو التمام واخرّجها ملط زي ما دخلث!

ورقة بيضاء 25

كل شقاوة أحمد التي يتحاكى بها الناس وجسارته التي يتندرون بها؛ سقطا في بحر الصدمة التي خلفتها كلمات بسيط التي تماست مع الجريمة والجنون. بات الفرار من أمام وجهه في هذه الساعة هو الحل الأسلم والوحيد لعله يستعيد اتزانه، هم بالانصراف، لكن بسيط استوقفه وهو ينهض من جلسته الطويلة يصلب أبضاعه على مراحل بعد تكسير من جلس على الشوك:

- رايح فين؟!

- هجيبلك لبن يفوقك.. إظاهر إن الحشيشة مغشوشة!

- مفيش حل غير كده انا عارف بعمل ايه!

- مستحيل أعمل كده.. حرام!

لدغته قهقهة سخرية ثم استكملها قائلًا:

- مابقاش إلا ابن الحرام يقول حرام!

فات ميعاد الكلام والرد، انهال بسيط عليه بالصفعات والضربات والركلات والسبّات واللعنات، يرشه بالدم ورذاذ أفضاله عليه، يعدها واحدة واحدة لاهثًا، حتى إنه يأكل الكلام من فرط ثورته، يكاد جوفه يفارقه.. شُج فم أحمد وحاجبه وشاع الدم في وجهه. رمى الناس في الخارج آذانهم ناحية الخن، وربما الصرخات الخارجة منه هي التي تتقاذف على آذانهم، بُهتوا وسكتوا وتسمرت حواسهم عن الشرب واللعب والسمر، لكنهم أيضًا لم يحركوا ساكنًا أو يبادروا باقتحام الخن، لا شك أن الفضول أكلهم لكن اللامبالاة سبقتهم بالهضم.. حاول أحمد الانفكاك من بين اللكمات لكن بلا جدوى، قارب على الإعياء التام وفشل في الانفكاك من قبضة بسيط الدامية، فتسند أحمد على شبابه وركله بين فخذيه ركلة سوت بسيط ببلاط الخن قبل أن يقطع النفس، ثم فر هاربًا وسط ذهول الصبيان والزبائن، ملتحفًا متلفحًا متوشحًا بدمائه وسواد الليل المحتشم!

الكراتين الصفراء المرصوصة في الخن حمت بسيط من فضيحة أكبر من فضيحة الخصي، إذ خاتل التحقيقات بعد إفاقته بقوله إنها تحوي سكر وشاي المقهى لشهور قادمة تحميه من نهش الغلاء المستشري. لم يكذب بسيط فيما قاله، كان ابن حِنط يعمل حساب يوم أسود مثل هذا، يدفس السرقات في نظام في الربع السفلي من كل كرتونة ثم يرص ثلاثة الأرباع المتبقية حتى سطحها لوازم المقهى، ولِما للمعلم بسيط من مهالة وتصديق، مع مراعاة حالته

الصحية اكتفوا بالفحص السريع دون تفريغ الكراتين.. وبسؤاله عن سبب شروع أحمد في إصابته بعاهة مستديمة اتهمه بخيانته مع زوجته التي كانت ساعتها قد هربت لحَظٍّ أحمد العثر، فتجهزت الجريمة بجهاز أحمد ومقاسه، وأسهب دون أن يُطلب منه فقال:

-كان مرمي على الرصيف في شارع البحر بيطلب حسنة من اللي رايح وجاي، لقيته شحط جبته ياكل بالحلال في القهوة بس ماطمرش فيه المعروف.. طلع ابن حرام مصفي!

ورقة بيضاء 26

خرج بسيط من المستشفى تلاحقه أخبار الخصي. ذِيعَ الخبر بملحقاته من التهويل في لمح البصر. وفي إجراءٍ خالٍ من الفطنة يجر مزيدًا من الشوشرة، يكاد المريب أن يقول خذوني، اعتاد بسيط بعد ما جرى على ابتياع علبة الحبوب الزرقاء كل خميس، حتى بات موعدًا ثابتًا يحفظه الدكتور الصيدلي ويتنمر عليه. وانتقل التنمر إلى جلسات سمر الجارات ونميماتهن، مثلما يشتعل عقب في كوم القش. وصلت الإشاعة إلى حِجر نبوية زوج بسيط الأولى، فعلقت باقتضاب وحسم يقطع الألسنة ويحذر من تكرار الحوم حولها ثانية، دون أن تريح لهن خاطرًا ملتاعًا لفض السر، تنهرهن بأن البيوت أسرار، ناهيك عن محاولات النسوة تقليب باطنها وتسخينه على بسيط بسبب زيجته الثانية التي انتهت بكارثة وهروبها المفاجئ، لكنها سدت كل الثغرات التي حاولن التسلل منها. لا مناص أن نبوية تحبه ولا شك أن الأحداث أكدت ما كان يتداوله الناس همسًا أنها بقعة النور الوحيدة في حياة المعلم بسيط.

فشل أحمد بس في كل محاولات تعلم السرقة، فرط الحركة الملازم ليده أوهم لبسيط أن أحمد سيصبح نشال العالم الأول، لكن أتت النتيجة عكس ذلك تمامًا، فأعطاه مهمة المحطة الأخيرة والرجل الأخير الذي تتجمع عنده سرقات الليلة، بل الليالي وهو الأصدق. النشل يحتاج إلى أيدٍ دقيقة ثابتة أكثر منها متحركة مهتزة. وربما كانت صدمة بسيط في رفض أحمد الانصياع لما خططه من أمر نرجس هو الوازع الذي ما تخيل وجوده، من أين استقاه وهو الذي أنشأه ورباه وكبّره، ورأى منه رقات من الضلالات، فقد كان أحمد بس بالوعة قاذورات وأسرار معلمه، للحد الذي لم يتصور معه أن تمتد يد أخرى نحوه بغير السوء الذي شربه منه. ولكن من الكِبر أن تسطر نفسك كل البشر والأقدار والطاقات والأبواب والسكك والسبل. هناك طاقة تسلل منها النور صوب أحمد، هبطت شمس يحيى بديع عليه بعد طول متابعة ورصد، طالما جالس كمال عزازي في مقهى بسيط وعينه لا تفارق أحمد ولا يده التي لا تهدأ حركتها. كره مناداته مصحوبًا بـ"بس" وتوسم فيه شيئًا ما، وسار يحيى عكس التيار الذي كثر عدده من صبيان المقهى والواردين عليها الذين ألحوا على أحمد أن يذهب لطبيب يعالجه، حتى باغته ذات أصيل في حضرة كمال وسأله:

- أحمد.. تحب تلعب مزيكا؟!

ضيف الجامعة

ورقة بيضاء 27

مرت الدكتورة ميرال سلامة أستاذ الكيمياء وسط الزحام الأقرب للجمهرة في حرم جامعة الشارع البحري. تنتدبها كلية العلوم هناك يومين في الأسبوع. عبرت الممرات الضيقة التي زاد ضيقَها تكتلاتُ الطلاب، كما تقف قصاري الزرع على جانبي الممرات في خمول. هنا في الحي لكل شارع كبير جامعة تخصه. يبدو وجود حدث استلزم هذه الجلبة التي تشبه المظاهرة لكن بلا هتاف ولا عصبية، وإن وُجدت بعض التحزبات الواضحة من وقفات الشُّلل، كلٌّ حسب انتمائه الموشي به زيه وطبقته. فقد ولت أيام الحراك السياسي في الجامعة، ساعتها كانت ميرال طالبة ومن الوجوه المعروفة للجميع بسخريتها من ذلك الحراك. كانت من اللواتي محفوظ مكان جلوسها في الصف الأول، ومن المعتقدين أن الجامعة مكان لتلقي العلم فحسب، وأي شيء آخر يعوق هذه الغاية هو محض سفاهة وضياع للوقت. هم طلاب خبرتهم لا تؤهلهم لإصلاح الدنيا، فهم غير قادرين على إصلاح أنفسهم أولًا. هكذا كان يقول أبوها الذي شربت منه هذه القناعة. كان طبيبًا روتينيًا ناجحًا يؤثر السلامة في أغلب الأمور حتى بات عبدًا للصمت، ويكره الجدال كراهة التحريم.. التوافد المستمر لطلاب بقية الكليات على المدرج الأكبر في كلية علوم أكد لها وجود ضيوف في الحرم. الأيام الفائتة كانت في مقرها الأصلي هناك في جامعة الشارع الأوسطي فغاب عنها جديد ما يجري هنا. كثرت الوجوه الغريبة عن الكلية اليوم وإن كانت مألوفة

في محيط الجامعة الأكبر، حتى الأزياء تعددت واختلفت. لم تلحظ ميرال من قبل ذيوع النقاب بين طالباتها، بيد أنهن ضمن الوافدات. وظنت ميرال في لحظة سذاجة أن الكلية استجابت أخيرًا لمقترحها، باستضافة المداح الصوفي الشهير كروان عطية. وكان اقتراح ميرال مفاجئًا لمن يعرفها، حتى إن الدكتور موافي ابن دفعتها كان حاضرًا حينئذ اجتماع الأساتذة فكف عن العبث بلحيته ولفّها في كفه بين الفينة والفينة، في حركة آلية صارت من لازماته المعروفة عنه؛ ثم قال لها في نبرة حسرة:

- جرى إيه يا دكتورة ميرال.. سبحان مغير الأحوال.. طول عمرك متفوقة وبتعطي الجامعة قدرها العلمي.. إنشاد صوفي إيه.. إحنا نتحاسب قصاد ربنا لو تسببنا في دخول هذه البدع الكلية!

لم يسمح العميد نشوب أي شجارات على طاولة الاجتماع الأخير له في عمادة الكلية، أراد النهاية السعيدة، فوافقت رغبته هوى ميرال التي ورثت عن أبيها إثيار السلامة على مزاولة النوّش، فقال:

- لو سمحتوا يا دكاترة مفيش داعي للتطرق لأي موضوعات ليست في سياق اجتماع اليوم، وبخصوص الأنشطة الاجتماعية هحيل تحديدها للعميد القادم.

ورقة بيضاء 28

سرعان ما ابتسمت لسذاجتها عندما شاهدت انتشار اللِّحى هنا وهناك، والمنتقبات اللواتي اتخذن نصف المدرج لحسابهن، إذ ما صلة هؤلاء بكروان مداح آل البيت الذي يفرد بساط الحب بجوار المقامات، كروان في عيونهم ضلالي مبتدع، فإن جاء سيقذفونه

بالنعال؟ الأعداد تفوق الاجتماع السنوي بين العميد والطلاب، وفوق طاقة المدرج بكثير، أثناء سيرها تسمعت من أصحاب الحناجر المرتفعة رأيًا بأن الكلية كان عليها أن تقيم هذه الندوة في حرم الكلية لعله يتسع للحضور، أفضل من إبقاء الأغلبية بالخارج يسمعون خلال المكبرات. بدأ شعورها بجهل الحدث من حولها يُغضبها، ومنعها الاستعلاء من سؤال أحد الطلاب الواقفين. كانت آخر من يعلم، والأخير ربه كريم، كما يقولون في مأثورات الحي، هنا يقولون عبارات غريبة المنطق، هنا في الحي أساتذة في مخاتلة أنفسهم، من أجل بلع أن تكون متأخرًا أضفوا على رب الأخير حفنة من مزية الكرم، لكنهم تناسوا في غمرة هذا أنهم بذلك ينعتون رب الأول بالبخل. كم عدد الأرباب في هذا الحي المبارك؟!

وقفت ميرال بجوار باب المدرج أمام (بانر) إعلان نحيف يترنح في هزالة تدل على ضعف جودته وزهيد ما دفُع فيه، ميزانية الكلية ضعيفة جدًا لا تحتمل أي رفاهيات، بالكاد لدفع الأجور والتجديدات القبيحة مع بداية كل عام دراسي.. طل وجه يحيى قصادها طوال الغواني التي قرأت فيها الإعلان، لو كان هنا ما سكت، أعرف ما سيقوله بسخرية موهوبة له وسرعة بديهة لاذعة لا تفارقه، تتقافز على لسانه في سهولة حركة الكلام العادي على ألسنتنا: "وإيه علاقة كلية العلوم بعمرو درويش، داهية ليكون فاكرينه عالم ذرة.. ده عالم ضراط". لم أكن أذهب برأسي مهما تخيلت أن يستبدلوا بالإنشاد الصوفي، عمرو درويش، ليتهم ألغوا الفكرة بلا بدائل، يبدو أن كرامات الدكتور موافي قد بدأت في الظهور مع العميد الجديد.

لا تزال تقف متسمرة دماغها تروح وتجيء أمام الإعلان، تصعد

وتهبط بسرعة فائقة كاليويو، شتتت الجلبة الآتية من الجانب الآخر كل فكرها وأخرجتها من السرحان. أتى نجم الحفل بطوله الفارع وبدلته الضيقة مكدودة العضلات، وقسمات وجهه المشدودة بالانتفاخ والثقة المحالفة للغرور. وبرغم مهاجمته للأفلام والفن وأهله ليل نهار فإنه كان يسير منفوخًا فوق السجادة الحمراء يلتقط الصور التذكارية. في حركة سينمائية مملة باهتة، تكررت في أغلب الأفلام الفاشلة؛ خلع الشيخ عمرو درويش النظارة الشمسية غالية الثمن، فقيرة الذوق، لا جمال فيها، التي أكلت نصف وجهه، يقلب نظراته بدقة ماكينة تصوير في قوام ميرال. تخطى نظرة الأسد إلى قبيلة من الأسود، ذلك الوصف الذي يطلقه ظاهرتية الحي على النظرة الأولى إلى المرأة الغريبة عنهم؛ أو الأجنبية كما يقولون. نظرات سريعات ثاقبات، كأنه مصمم الفساتين العالمي يلف بكرة القياس حول خصرها الصغير الدقيق المنمق، فجاس بالنني في ثبات بغير مواربة ودون أن يلحظ المهللون به من حوله؛ بين خصلات شعرها المائل للبنية المنسدل لما أسفل كتفها، ثم مشط عودها المتناسق المنحدر من حضارة الفرنسيس رغم خمريتها التي تقارب السمار، حتى لمح في نظرة أخيرة خاطفة خلخالها الذهبي الرقيق تزامنًا مع ارتدائه النظارة مرة أخرى، ثم عبر الباب نحو المدرج المكتظ بالحضور والأتباع!

ورقة بيضاء 29

بالطبع لم أكن حاضرًا لأرى كل هذه التفاصيل الدقيقة، بل من الصعب على كل الحاضرين أن يلحظوا كل هذه التفاصيل في لحظات معدودة، يستلزم الأمر صحفيًا فلتة عبقريًا لقّاحًا كزياد

ابني الذي كان هناك. وقتها بالكاد مر عامان على تخرج زياد في كلية الحاسبات والمعلومات، لكن ولعه بالصحافة كان بارزًا، موهبته واضحة للعيان، لكنها لم تكن كافيه ليلتحق بأحد المواقع الإخبارية التابعة للجرائد، حتى قمت من وراء ظهره وتودّدًا له - لعل الشقاق بيننا يلتئم - بالتحدث مع نبيل عجب من أجله. كان سيعاندني بالرفض لو عرف ذلك، زياد هو الآخر محمل بأفكار كمال ويحيى. بيني وبين نبيل أيام طويلة من المصالح، أغلبها مخفي عن العيون، أسهمت في ذيوع صيته كما أسهم في انتشار شغلي الرسمي والمخفي في الأسواق. كان على علم بالمطبعة السرية، بل كان يُبلغني أولًا بأول أوقات الترصد واللبش وأوقات الرخاء والصهينة، مقابل ذلك فطست له كتب منافسيه بأعداد هائلة من الكتب المزورة، بينما زورت بالاتفاق معه نسبة قليلة لا تُذكر من كتبه حتى لا يتسرسب الشك إلى قلب المنتبهين أمثال إبراهيم نجم. ولا زلت أعتبر موهبتي الكبرى في الحياة هي التكتم والكتمان، استطعت العمر كله إخفاء امتلاك نبيل عجب على عشرين بالمائة من المطبعة السرية على شريك حياتي كمال عزازي، لو عرف وقتها لهاج وماج. كان لا يطيقه لأسباب كلها تتعلق بالقبول والأفكار ورائحة تقاريره الفائحة، بينما في ذلك الزمن كنت على استعداد لقبول العفريت طالما سيدر عليّ بالمال الوفير والنفوذ النافذ!

تحدثت مع نبيل وأرسلت له آخر ما كتبه زياد على صفحته فلم يكذب الخبر وفعلها.

غرّد زياد على صفحته:

"بات أمرًا لا يدعو للعجب ولا الحزن ولا الرغبة في بحثه وتغييره؛ أن يشتغل الناس بمهن لا علاقة لها بعلوم دراستهم، حتى وإن وافقت مواهبهم في بعض الأحيان، لكن لماذا لم تسِز من البداية الدراسة في طريق الموهبة؟ لا أحد في الحي يهتم، لا مسئولوه ولا أهله ولا ناسه، ولا هم يكفون عن النظر إلى مكتب التنسيق على أنه نهاية المطاف والصراط المستقيم الذي إذا سقطتَ من فوقه أخذتك النيران بالأحضان، فإما أن ترتضي بما أجبرك عليه وإن لم يوافق قدراتك؛ وإلا كان الغرق والضياع. ولم أجد في حيّنا أتعس من الموظفين الذين يتمنون لأبنائهم الوظيفة! هم لا يسعون إلى إيجاد آلية لفحصك جيدًا حتى تتوافق دراستك مع ما خُلقت له. وما أكثر الطنطنة وأمقتها! كبر مقتًا عند اللّـه أن تقولوا ما لا تفعلون، والنعق بما لا يحدث في الحي وافر وفير يكفي ويفيض، فما من أحد تقابله حتى يطرب أذنك بأن "كلٌ ميسر لما خُلق له". إذن لماذا كل هذا العسر يا أولاد المتسخة؟!"

ورقة بيضاء 30

بعد دقائق معدودة بعث الصحفي الكبير نبيل عجب برسالة إلى زياد يخبره فيها أنه يتابعه منذ فترة طويلة، ويضع عينه عليه، فأبدى إعجابه بمنشوراته وأكد له على امتلاكه موهبة النقد والتحليل والمقال. ثم طلب منه أن يحول تلك السطور إلى مقال كبير من خمسمائة كلمة ثم يرسله إليه ليكون أول مقالاته على أهم موقع في الحي "30 يوم في الحي". فانهال زياد على أزرّة حروف هاتفه يقدم الشكر والامتنان والتحية للأستاذ الكبير الذي يملك عينًا بصيرة نشلته من عذاباته وقربته مما يحب، بينما خلال ذلك كانت

إشعارات الرسائل تهتز تعلن عن تحضير نبيل لرسالة جديدة يكتبها لتوّه، حسبها زياد طويلة لطول المدة الفائتة لكن يبدو أن نبيل كان متلذذًا بثناءات الشاب الصغير عليه، فعلق يده فوق وسادة الحروف وظل يقرأ، حتى انتهى فكتب له فى اختصار:

- هتكون تحت التمرين في الأول يعني من غير مقابل مادي.

- موافق طبعًا كفاية إني هكتب في موقع مهم زي موقع حضرتك.

- تمام.. خلص وأرسل لي المقال.

غرق زياد تمامًا في فرحته وظن أن الحوار قد انتهى مع الأستاذ فأغلق الصفحة، إلا أن نبيل باغته مطصنعًا التذكر من بعد نسيان قائلًا:

- زياد.. امسح أولاد المتسخة من المقال.. في انتظارك.

لم يطلب نبيل من زياد حذف الشتمة لأنه عف اللسان دَمِث الخلق، ولا لحرصه على الذوق العام للقراء، فهو يسب ويشتم للسب والشتم إن لم يجد سببًا للسب والشتم. لكن الشتمة شجت رأسه وترستأت فوقها كبطحة، تحسسها على الفور، لا شك أن بقية العبارة قصدته دون أن يقصد زياد، لكن للشتمة وقع آخر مهما كان الكلام جارحًا، تسيل الدم بسيولة أسرع، وإن كان الجرح المجتر من النقد اللاذع لا يندمل أثره. لم أتبين من محتوى المنشور قبل أن أرسله لنبيل، لو قرأته لاخترت واحدًا آخَر، كان أولى بنبيل عجب ألا يمنح زياد هذه الفرصة الثمينة بعدما داس على وتره الحساس - لكن إكرامًا لي فوّتها - ذلك الوتر الذي أفسد علاقته بابنه. صمم نبيل أن يرث ابنه

مهنة الصحافة التي لا يفقه فيها شيئًا ويكرهها كراهة العمى، فمنعه بكل ما أوتي من سلطة وتسلط وتهديد وبطش من دراسة هندسة الميكانيكا، التي كانت ولا تزال حلم حياته. ربما اعتبر نشر هذه المقالة كأنه يصالح ابنه خفية، الندم الذي ينزغ باطنه ولا يقوى على البوح به صراحة؛ خصوصًا بعدما فات الأوان ووقع الانفصال التام بينه وبين ابنه. اشتركت مع نبيل في أمور عديدة حتى علاقة كل منا بولده، كلانا أب سيئ، بل شخص سيئ!

نشر زياد بعد ذلك المقال، مقالات عديدة لقيت قبولًا واستحسانًا، عزز من وجوده الرسمي في الموقع والجريدة، فانتقل من مرحلة التجريب إلى التثبيت. عامله كأحد أفراد المؤسسة القدامى، اعتمد عليه لدرجة الحلب، أثنى على شغله ورفعه للسماء السابعة أمام الكبير والصغير، ولا أصغر من زياد في الجريدة. في مثل عمر زياد المبكر، إن لم تكن ابن شارع، ببنوة وقفة النواصي وجلسات المقاهي، ونزلت الصعلكة فوق رأسك زخات، وأخذت منك الصياعة راقات؛ فلن يعوض صغر سنك حكمة ترصع العقل ولا شك يحمي من لدغات العقارب، بدون كل ذلك ستلدغك العقارب والحيّات!

ورقة بيضاء 31

دعاه نبيل للحضور إلى مكتبه في أجواء احتضانية صارت عادة كلما جمعهما لقاء، ثم أخبره في نبرة تهليلية كأنه يعلن اسم الفائز بالجائزة الكبرى، أنه يكلفه مهمة تغطية ندوة الشيخ عمرو درويش في كلية العلوم بجامعة الشارع البحري، ثم بنبرة آمرة لا تخلو من الود قال:

- اسمع يا زياد، لا يعلم أحد غيرنا بهذه الندوة، عرفت تفاصيلها بعلاقتي الخاصة ولا أريد أن يشتمّ بها أي موقع حتى لا يسبقنا. أصلا الكلية لن تعلن عنها على صفحتها على الفيس بوك، هم في حل عن أي شوشرة، عارفين إنهم هيتسلخوا لو اتعرف إن عمرو درويش راح عمل ندوة في كلية العلوم. لذلك أريدك تدخل إلى الكلية كأنك طالب فيها وتحضر الندوة وتغطي كل اللي هيحصل بكل دقة!

في مغامرة صحفية تعود إلى زمن الحي الحلو، إذا كان حقًّا قد مر عليه زمنٌ حلو، وفرضًا أنه قد مر أهناك حلاوة خالصة في أي شيء؟! على أية حال، تسلل الصحفي الشاب زياد بين الطلاب، كأنه واحدٌ منهم، فعبر بثبات أمام الحراس الواقفين على البوابة يترصدون النملة بالغتاتة، بينما يمر الفيل أمام أعينهم راقصًا يهز زلومته. أعطى نفسه مساحة من حرية الحركة والرصد والمتابعة دون أن تتلصصه العيون بالريبة، أو أية مضايقات من الموتورين، وبغير أن يُعرض نفسه للأذى ممن يقتنعون بأن الصحافة هى من أوحت للشيطان بألا يسجد. حرص زياد على الجلوس في الصفوف القريبة الأولى بعد صف الدكاترة الأول، حتى لا يغفل عن ناظريه أي شاردة أو واردة تحدث. كل ما قصصته وسأقصه هو مما حكاه لي زياد عن ذلك اليوم.

الحق أن الشيخ عمرو درويش بارعٌ في إيهامك أن جعبته ملآنة بالعلم الوفير، يشتغل على كالوس نفسه جيدًا فيما يخص الدعاية والإعلان. لديه فريق عمل منتشر متشعب يرصد له الشاردة والواردة، المحللون المتعرضون له بالنقد لاحظوا قدرته على دمج ما عاينه سريعًا على موسوعة المعلومات ويكيبيديا، وسط وعظاته الدعوية،

أي من كل فيلم أغنية، ومن كل باقة وردة، فيظهر كأنه واسع المعرفة غزير المعارف، متسع الأفق. وقد اتضح فراغه وضعف حجته مرة واثنتين وثلاثة؛ خصوصًا إذا جنح ليخلط ما هو علمي قح بما هو ديني قح، ولعل طلّاته اليومية المتكررة التي شَهرته ما شجع إدارة الكلية العلمية على استضافته!

ورقة بيضاء 32

كان الجزء الأول من الندوة ساحة استعراض هادئة ليس بها إلا رَمح الشيخ عمرو من فوق صهوة جواده، يصول ويجول بين كلماته الرنانة وتهويشاته اللغوية وتراكيبه المفخمة. يؤكد على أن العلم هو ساعد بناء الحي المفتول القوي، مردّدًا حديث الرسول الكريم صلوات ربي عليه: "اطلبوا العلم ولو في الصين". متوشحًا بوشاح الآيه الكريمة الأولى التي هبط بها جبريل الأمين "اقرأ". قد يبدو الكلام مكررًا لكن بطريقة الشيخ عمرو درويش السحّابة الصاخبة تشعر أن قاعه ممتلئ وما أراد إظهار إلا أبسطه ترفقًا بالعقول، ورحمة بالبسطاء من المستمعين الذين لا يريدون أن تفوتهم تمام المتعة بالانصراف إلى صعوبة الفهم. مزق في مدارات حديثه المتشعب كل الطوائف والآراء والأفكار والمِلَل والنِّحل، يلقي بالتهم على كل من هب ودب. هذا ملحد وذاك مشرك، وآخر ثبت كفره لا يجوز الترحم عليه، وآخرون علمانيون مدنسون لهدم الثوابت. والرجل الذي كان أستاذه على حد قوله، ثم بهرته أضواء الشهرة فمشى مع الرائجة وفرط في دينه، والمرأة التي أساءت إلى زوجها فطلقها فأرادت أن تنتقم، والنسويات اللواتي يردن إفساد عقول الفتيات. والفن الذي هو على الأغلبية حرام لأنه يخرب على

الآباء تربية أبنائهم ووجب مهاجمته بشدة، وحفنة المثقفين الذين قرءوا كتابين ثلاثة فأطلقوا على أنفسهم متنورين وهم مضللون، حتى أولئك المتصوفة الذين يؤاخونه تحت نفس المظلة، فسقهم وبدعهم. ولم يفته أن يختتم هذه الرصاصات المصوبة تجاه الجميع إلا بتغليفها بأن يتكلم بلسان الفرقة الناجية كأنه يقف على رأسها ولسانها الأمين، وزادها وعتادها وقرة عينها، تأتمر بأمره ويملك وحده مفاتيح أبوابها التي لا تغلق مغاليقها في وجهه أبدًا. وقد ظهر جليًا أنه يتعمد التنكر من آراء مشايخه الأكبر علمًا وسنًا، بل يشير إلى ما قالوه في المسائل المختلفة تلميحًا وليس تصريحًا، بالسخرية المبطنة التي يحسبها الساذج عرضًا، وما أكثر السذج! وما يكاد ينطق بجملة تتشنج لها عضلاته وتبرز لها أوردة رقبته حتى يقاطعه اللفيف الملتف بنظامية مدربة بأركان المدرج ليهللوا ويصفقوا، في تفان وحرارة.

أما الجزء الثاني من الندوة فانقسم إلى الأسئلة المجمعة في أوراق صغيرة، ثم التعقيب والمداخلات لمن أراد، فسأله الطلاب بلهفة وأجابهم بيقين:

- ما حكم ارتداء الرجل للسلاسل؟!

- حرام شرعًا لأنه يتشبه بالنساء، وأقول لإخواني كن رجلًا كما أراد اللّـه وابتعد عن مثل هذه التقاليع التي تسلب منك رجولتك.

- هل يجوز التوسل؟!

- قولًا واحدًا يا شباب التوسل بغير اللّـه شرك، والذهاب إلى قبور الأولياء حتى إن كانوا من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام لا يحل

لأنه من الشرك العملي، فهو فعل فعلة الكفر لكن صاحبه لا يُكفَّر، بل شارك المشركين في توحيد الربوبية وينقصه توحيد الألوهية، تلك بدعة نشرها القبوريون الذين يسألون من في القبور وهم لا حول لهم ولا قوة، مهما كان قدر من في القبر لا يستطيع نفعًا ولا ضرًا، بل إن من الضلال المبين ما يفلعه المبتدعة من التوسل بالنبي نفسه! هؤلاء الناس والعياذ باللّـه يعبدون من في القبور من دون اللّـه.. يا أخي توسل إلى اللّـه بطاعتك ولا حول ولا قوة إلا باللّـه العلي العظيم، اللّـهم عافينا وطهر حيّنا المبارك من غلو المتصوفة وضلالاتهم.

- هل الأرض كروية أم مسطحة؟!

- الإثباتات القرآنية على أن الأرض مسطحة كثيرة، لكن سأتلو عليكم آيات تأملوها جيدًا، ﴿وَالأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ودحاها أي بسطها، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي جعلناها فراشًا للمخلوقات ومهدًا لأهلها. والآية الثالثة يا شباب ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي أن الأرض مسطحة كالكتاب حيث لا يكون الكتاب كرويًا مطلقًا!

ورقة بيضاء 33

طالت فترة التصفيق عن أى فترة سابقة منذ بدأت الندوة؛ إذ بدا على الحاضرين بمختلف أعمارهم وثقافتهم تعميرة الدماغ مما فتح اللّـه على الشيخ عمرو، إلا أن زياد رفع يده يطلب فتح باب المداخلات والتعقيب ويبدو أنه بدأها وأنهاها أيضًا، قال بحماسة كادت أن تفضح خبيئته الصحفية:

- شكرًا على المداخلة وأتمنى أن يكون الشيخ عمرو لديه سعة صدر لكلامي، عندي تعقيب سريع على الأسئلة، فيما يخص حكم السلاسل للرجال اللي حضرتك ذكرته، اسمح لي هذا الرد مضلل!

ارتفعت أصوات المدرج بالزجر والنهر والاستنكار صوب زياد، إلا أن الشيخ عمرو رفع يده يطلب منهم الصمت وأن يتركوه يُكمل حديثه.

- مضلل لأن من المفترض ذكر خامة السلسلة يكون ركن أساسي في الإجابة؛ لأن زي ما كلنا عرف ونشأ على إن الدهب غير الفضة، فلما حضرتك دلوقتي تساوي ما بينهم لشيء انت مقتنع به تبقى الفتوى منقوصة.

لو سمحت أنا لسه ما خلصتش، هحاول أختصر.. أما في مسألة التوسل هذكُر أمرين وحضرتك ترد الأول الآية الكريمة ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، أما الأمر الثاني هو توسل الخليفة عمر بن الخطاب بالعباس عم الرسول في طلب الاستقساء.

أما عن السؤال الأخير أنا حقيقي مستغرب للغاية ومندهش ازاي إحنا بين جدران كلية علوم والطلاب بيسألوا الشيخ عمرو درويش عن كروية الأرض.. طب ما نقفل الكليات العلمية أحسن!

عند هذا الحد فار تنور المدرج وانتهت الندوة بالجبر لا الاختيار، وخرج زياد محمولًا على أيادي الغضب وقد نال ما لم ينله النشالون في الحي من الضرب والركل والزجر، حتى قضى ليلته في طورائ أحد المستشفيات، بينما انتشرت صورة رأسه المبطوح على صفحة الموقع يذيلها خبر ما كان، فذيع صيت الصحفي الهمام قبل أن تظهر صورته ثانية بعد حين، بعدما تغير الحال!

يحيى بديع

ورقة بيضاء 34

الأرض خراوية!

ذلك ما يعتقده يحيى بديع يوم السبت.

كان اليوم سبتًا، وكعادة الأيام لا أحد ينظر إلى السماء. اللون الأبيض المُسحَب يحتل أجزاء كبيرة من زرقتها الشاحبة، الطقس خريفي بامتياز والشبورة في بيتها ومطرحها، وإن لم تصل إلى حد حجب الرؤية أو تكديس المرور أو أية مشاكل تلفت النظر إليها. والسبت في هذا الحي يوغل النفس ومصدر للضغائن والأحقاد، ومجال للتفرقة بين الناس. فهو نعيم يُسكب فوق رؤوس الأغلبية بالراحة والرغد، ومطارق تُهشم أدمغة آخرين بالمشقة والإنهاك. وجاءت خطة التعمير الطويلة الأمد واسعة النطاق في الحي وضواحيه فزادت من محنة السبت عند المهندسين، لأن إجازتهم الوحيدة يوم الجمعة. يكاد يمرُّ كسِنَةٍ من نوم مشحونة بالأرق، وحينما اعترضوا لآدميتهم لعل المديرون يبادروا في حل المشكلة، تفاوضوا معهم، فإن لم تُحل المشكلة بالكلية؛ على الأقل يصلوا إلى حل وسط بأن يكون العمل يوم السبت بالتناوب أسبوع وأسبوع. لكن جاءت خطة التعمير الجديدة لتدهس أمانيهم تمامًا في عيشة طبيعية مريحة كبقية الناس في الحي. المهندسون في حيِّنا مطحونون، ليس لديهم وقتٌ لأي ترويح يسرِّي. هناك رغبة شديدة من أعالي الحي في استخدام المهندسين، تلك الفئة الأكثر نشاطًا، أرادوا لها أن تدور في السواقي، حتى وصل الحال أن يوم الراحة

الوحيد صار مهددًا هو الآخر أغلب الوقت ليذهب أدراج الرياح. حتى لو وصل الأمر أن تنهار قواهم ويقعوا صراعًا! كل هذا الضوء المسلط عليهم ليس كرهًا لهم بل يتم في اعتزاز شديد لدورهم في إعمار الحي العتيق النبيل، وللحق فبرغم كل هذه المشقة والغلبة تجد ملايين من مهندسي الحي يشعرون بالزهو والنرجسية تجاه هذا التشريف والتكليف؛ عدا يحيى بديع!

لم تكن معاناة المهندس يحيى بديع مع السبت سِرًّا البتة، بل طالما ما بث شكواه وابتلاءه وفق ما يردد على مسامع جلسائه، مكمن حزنه هو ضيق الوقت الذي لا يسنح له التفرغ لورشة الموسيقى التي فتحها في عمارته بعد وفاة بديع. بالكاد يمر كل يوم ساعة أو اثنتين على ورشة الموسيقى التي يتفقد أحوالها، بينما أوكل مباشرتها غالبية الوقت إلى أحمد بس. وقد تبدى صدق وجعه وإخلاص حسرته حين كان قاب قوسين أو أدنى من تهشيم رأس زميله، الذي هون من أمر الذهاب إلى الموقع يوم السبت بل يرحب لإضافة الجمعة إذا تطلب الأمر، فقد يحيى صوابه كأنه خسر روحه وانهال عليه بالضرب واصفًا إياه بالمومس التي استحبت النكاح حد العبادة!

شواء الغضب لا ينقطع بداخل يحيى طيلة السبت حتى ينقشع، إلا أن هذا السبت ذو مذاق مختلف.. فتحت ميرال عينيها فوجدته بجانبها، فمسكتها حيرة ليست جديدة، توقظه مخافة أن يكون غلبه النوم أم تتركه مخافة غضبه أن اليوم سبت. هزت كتفه بحنان ورهبة:

- يحيى النهار طلع..

- مش رايح النهارده يلعن أبوهم، نامي!

ورقة بيضاء 35

استيقظ يحيى على أحسن وجه وأروق بال، بقاؤه في المنزل يوم السبت كفيلٌ لشحن السرور في رحله، أغلق هاتفه وندر اليوم للبهجة القصوى وليكن ما يكون من أمر الدنيا التي لا تخجل من مباغتته بالمفاجآت.. تناول الفطور في البلكونة المحببة التي أسسها على كيفه ومزاجه، يجلس في ركنها في أويقات الصفاء النادر.. استرق النظر على الصباح الهادئ والشارع الخالي إلا من الباعة الساعين وراء أرزاقهم في ضراوة أسد يعدو وراء غزالة، وأمل سلحفاة في الوصول قبل الفوات.. راح بسمعه إلى زقزقة العصافير والترتيلات القادمة من الشبابيك العلوية والمحال الأرضية لمقرئ الحي الساخن الأشهر بشارة عرقوب، كأنه اتفاق لم يبرمه أحد بألا تحلق آيات القرآن في سماء الحي إلا بصوت عرقوب.. ارتفع صوت زهير صاحب محال البقالة: "البقرة بركة ونور تجلب الرزق وتطرد الشياطين..". قال يحيى الناظر من أعلى بلهجته الساخرة المطوية تحت جلده: "هتطردك إن شاء اللّـه يا حرامي الأسعار!" ثم تحدث إلى ميرال يرفع يده ما بين الإشارة بحماس والتلويح بغضب:

"ايه البكا اللي بنسمعه ده.. هما قرّاء حيّنا بقوا وحشين دلوقتي.. اللـه يرحمك يا شيخ عرفة!"

اعتادت ميرال على زوجها مشاكسًا، فلا يكتم واردة استنفرت بداخله إحدى قناعاته حتى يُبدي الرأي والمشاغبة.. مؤخرًا بدا

أنه يسير على طريق الترشيد والصمت والغموض بما يحفظ له حق اختيار المعركة التي يخوضها.. راعى انتباهًا علامات غرائبية في نشوة سبت الراحة هذه المرة، السعادة المتقافزة من عينيه تحمل ثقل فى الجفون كثمالة السُكر، شيئًا فشيئًا ترى التيه يزحف على صفحة وجهه ثم يعاود ثانية.. لو لم تكن متتبعة حركته منذ استيقاظه لظنت في تعاطيه الحشيش.. سألته أن ينام فرفض بشدة مدعيًا إفاقة كاذبة تأبى الظهور ونشاطًا لا يحسه سواه.. بدا كمُحتضَر فاته الموت فسعد بالنجاة.. يكبُرها يحيى بعشر سنوات، تزوجا منذ ثلاث سنوات، هى اختارته، أستاذة جامعية صغيرة رصينة افتتنت بخميرة الشجن والثقة والغموض المصبوغة على وجهه غريب الأطوار، تحققت نبوءة خالتها الحدقة.. "يا ميرال هتشوفي الرجالة اللي قدك مساخيط". وبرغم ما تملكه ميرال من رجاحة لم تفلح في طمأنته حيال المستقبل ولا نزع القلق من صدره. حاجز شائك شفاف حديدي من المهابة يقف أمامه يمنعه من الإقدام على قرار الإنجاب، تتأسى ميرال شوقًا لشعور الأمومة، ويتعكر الصفو بينهما كلما حام الحديث نحو رغبتها.. أغراها روقانه فسارت فوق اللغم تلبي نداء لا يكفُ صداه في جوفها، رمحت الكلمات فوق لسانها فقالت تبدر اللطف في أرضه:

- يحيى أنا بحبك ومقدرة خوفك بس نفسي أبقى أم..

- مين قال إني خايف؟! أنا مش مقتنع بالفكرة أصلًا!

- ما ده اسمه خوف من بكرة يا يحيى!

- مش عارف انتي ازاي شايفه إننا في مجتمع يحتمل قدر جديد

من فساد البشر، أزود هَمّ جديد على العالم!

- أنا طقهت من الكلام ده.. هو لازم أكون كمال عزازي عشان تسمع كلامه.. طب تعالى نسأل الشيخ عمرو درويش، معايا رقمه من يوم الندوة!

- أنا ما صدقت أعرف أخد إجازة.. هنزل غرفة الانسجام.. سلام.

نهضت ميرال تواري دموعًا خانتها ونهاية بدأت بدايتها، لكنها صممت على سؤال الشيخ عمروا

ورقة بيضاء 36

يحيى يقول إن ميرال نبّاشة. لو وضعت أمرًا في رأسها لا تتركه إلا وقد فتحت مغاليقه. تقرأ كتالوج الأجهزة الكهربائية بعناية من يقرأ الجريدة في الصباح، بينما يكون يحيى قد ركب الجهاز وانصرف. يتندر دائمًا أمام الجميع أن ميرال لم تتهادَ أمامه قَطّ في لحظة لين تطلب منه فتح غطاء البرطمان. هي ليست بالجافة البتة، على العكس هي تحب لحظات المضي نحوه ترمي بنفسها بين أحضانه متدلية برأسها إلى نصف بطنه تقوقع كيانها كله داخله، كأنها تغمس مشاعرها في قلبه وتختفي بين جنباته.. لكن الأمر عندها ارتبط بكراهة العجز، تكره أن يواجها شيء ويصعب عليها فك طلسمه.. ربما يعود ذلك إلى تفوقها الدراسي الذي استدام حتى بلغت درجة الدكتواره. العقل الأكاديمي يحكمها في اتباع البحث عن كل شيء بنظام وتراتبية روتينية، فضلًا عن عدم مضغ أي خبر عن تسليم، تملك حس الشك الديكارتي بامتياز، ناهيك عن أنفها الذي يستطيع شم الريبة بنسب عالية تكاد لا تخطئ تقارب المائة في المائة كنتائج

انتخابات الحي. ولعل كل هذه الملكات العقلية البحتة هي التي جمعت بين يحيى وميرال، بأكثر ما جمعتهما نبضات القلب الحارة، للعقل في علاقتهما حظوة خاصة وسطوة قابضة.

غُلب يحيى مع أحمد بس حتى أقنعه بالتخلي عن أية ألقاب في مناداته، بلا عمو التي قطعًا تبعد أميالًا عن بيئة أحمد الأولى، ولا عم ولا خال ولا أستاذ ولا حتى باشمهندس. لم تكن العشرون عامًا مقدار الفرق بين يحيى وأحمد مقنعة لكي يتقبل منه أي لقب، فقد رأي يحيي اسمه كافيًا. عجيب يحيى، يحمل وجهَي التباسط والاعتداد في آنٍ، بمقدرة عالية من التنفيذ، ولمن يعرف يحيى عن قرب يعلم أنها علامة قبوله للآخر. أينعم هو يبغض الأحكام الجاهزة المعلبة على الآخرين، وإن شئت قل يكره تعديها القدر الكافي لاختيار الناس لرفقائهم في الحياة، لكنه يعتقد في حتمية الوقوع في هذا الفخ الإنساني، لا مفر منه، فالترياق يُصنع من قليل السم. فتجده في أوقات لا يتهاون لدرجة التعنيف لمن نسى نداءه بلقبه؛ مهندس يحيى، ومع آخرين يكون أبسط الحاضرين على الإطلاق، وقتها لا يرضى إلا نداءه باسمه فقط؛ دلالة دخول هذا الشخص إلى عقله وقلبه، وقد رآه يستحق الدخول إلى عالمه الخاص جدًا، دون النظر إلى عمره ورسمه ووظيفته وخلفيته في الحياة. هكذا نجح أحمد بس في الاختبار الذي لا يعلم عنه أحد.. يظل ظهور أحمد لغزًا حير الجميع أيما حيرة، فجأة ظهر مثل عفريت العلبة، اصطحبه يحيى في الورشة فعلمه ودربه وفاق التوقعات إذ بان أنه عازفٌ باهرٌ، وما كانت فرطة يده إلا هبة اللّـه. في غمرة حالة الاحتضان الكامل التي أولاها يحيى له، خشي أحمد أن يحكي عن سر اختفائه الليلي وما

يفعله مع المعلم بسيط من جمع السرقات، خاف أن يخسر كل شيء كسبه في مدرسة يحيى، وللسبب نفسه انصاع لأوامره فأخفى عن بسيط حياته الأخرى في عالم يحيى والموسيقى. لكنه جاء يوم الخن إلى يحيى في إعياء وانهيار تامين، فما كان منه بعد شفائه وإفاقته إلا الاعتراف بحمله الثقيل إلى يحيى، الذي هون عليه وأسرع في إخفائه عن العيون، بعدما صار في يوم وليلة مجرمًا تبحث عنه العدالة!

لو ظل أحمد بس في الورشة سيضع العمارة كلها صوب الشك والخطورة، لمعت الفكرة في رأس يحيى للمرة الأولى، فأخذ أحمد يُخبئه في بدروم المسرح المهجورا

ورقة بيضاء 37

لم يستطع يحيى مواجهة ميرال بحقيقة وقفه عن العمل وتحويله للتحقيق، ربما غدًا أو بعد غد تعرف حينما تجده أمامها في النهارات المتعاقبة، (كما أخفى عليها تستره على ندى نجم الهاربة من مطاردة باسل في شقة الطابق العلوي). قبل أن يجد يحيى ضالته في المسرح المهجور، أبقى على أحمد بس يتعافى في غرفة الانسجام في الورشة في تكتم بالغ شديد. كانت ليالَي عصيبة أجّل يحيى على إثرها ورش تعليم الآلات لأجل غير مسمى. فعل كل ذلك في سرية وصمت عن ميرال. غرفة الانسجام كما سماها يحيى في قلب مدرسته بل في قلبه، لها طقوس وقوانين خاصة لا يجرؤ كائنٌ من كان على تخطيها أو إسقاطها لأي سبب من الأسباب. لذلك يعد هذا الجمع الملتف حول يحيى من النوادر، هو من استدعاهم للمجيء في

حذر، ندى هبطت من أعلى وأحمد راقدٌ بالفعل في الغرفة، لم يتبقَّ سوى سارة التي جاءت على الفور تلبي أمر قائد الفرقة. اعتادوا إقامة البروفات قبل الحفلات المهمة في الورشة، لندرة الحفلات التي يتعاقدون عليها أصبحت كل الحفلات مهمة حتى الصغيرة منها. بينما ظلت غرفة الانسجام ملك يحيى وحده هو وعزفه وأفكاره وشجونه وأسراره الموشومة تحت جلده، الضوء الخافت قانون الغرفة الأول. أما الثاني فهو لا مساس بأية أغراض موضوعة، فلا يجوز تحريك أي شيء من مكانه تحت أي داعٍ حتى لو التنظيف والتنظيم، هو كفيل بذلك؛ ولأنه يحب الشمس يسمح لها بالدخول إلى الغرفة بأكثر ما دخلها الناس.

وارتاح يحيى حينما لم تصرّ سارة على معرفة سبب ما حل بأحمد من خرشمة، يحيى يحفظ ماضي أحمد وسره لا يطلع عليه أحدًا، بينما اغتم أحمد وكتم اغتمامه لأن سارة لم يبدُ عليها القلق أو أية بوادر لهفة تبل ريقه. كانت الغرفة جديدة عليهم، حتى أحمد المسئول الأول عن الورشة لم يجرؤ على دخولها من قبل، بينما كان يحيى يحكي لهم كيف واتته فكرة غرفة الانسجام من الورشة التي تعلم فيها العزف وقابل فيها ندى أول مرة. كانت ندى تتجول في أركان الغرفة الأشبه بالمتحف الغريب الأطوار كصاحبه، بيد أن بديع زهران يسري في عروق يحيى رغم أنفه.. لمحت ندى من بين رفوف الكتب كشكولًا تعرفه جيدًا، هو نفسه الذي اعترف لها فيه بحبه، ألا يزال محتفظًا به؟! تيقنت أن اختيارها في اللجوء إليه كان صحيحًا. وحينما ظهر عليها الشرود أمام الرفوف بادرها يحيى بالنداء فباغتته مستغربة مشيرة إلى رصة الجرائد الواقفة للسقف:

- ياه يا يحيى أنت لسه بتقرأ الجرائد!

انبرى أحمد يجيب:

- ده لازم كل يوم يخليني اشتريهم ويسهر عليهم.

- الجرائد دي مهما كان فيها ومهما بقت ضعيفة هي اللي توريك بوصلة الحي رايحة فين، أو عايزنها تروح فين؟!

سألت سارة ببراءة ليس منها في شيء:

- هُقّا مين؟!

وكأن ندى تعهدت الغلوشة في هذه الجلسة فسألت أحمد:

- وصلت لحد فين في دروس الجيتار؟

ثم وجهت نظراتها وكلامها ناحية سارة تسترسل في حديث، بدا من وتيرة إلقائها أنها قد بدأته في رأسها، واستحبت إظهار هذا الجزء منه بالأخص:

- أنا أصلي بطلت اقرأ الجرائد والمواقع، أو أقرا أي أخبار من يوم ما نهشوني بالإشاعات وتدخلوا في حياتي بالكدب لحد ما خلوا باسل يتخلى عني.. خلوني أسيب كل حاجة وأهرب من الظلم والافتراء.. عايزة بس اعيش في سلام.. أعزف مزيكا وأرقص ويرجع ابني معايا تاني!

بدا أن النغمة التي عزفتها ندى لم تطرب يحيى، وفي الوقت نفسه أحب تخفيف وتيرة الشجن المتصاعدة فقال:

- بقولُكم إيه تعالوا ندندن شوية..

قالت سارة:

- فكرة حلوة هنعزف إيه؟

قال يحيى بانتشاء يدقق النظر فى عيون ندى ذات الكحل الأسود الغامق الغويط:

- أنا هويت وانتهيت!

ندى نجم

ورقة بيضاء 38

ما أكثر أوقات البين بين في حياة ندى نجم. قطعت مشوارًا طويلًا في مواءمة العيش مع النصف حالة. ضالتها في الحياة الحسم، وإن كانت تزعم أنها فعلته حين قطعت رأس باسل من حياتها. لكنه يبقى حسم الحتمية الذي إن لم يحدث تُمس الكرامة بسوء. وهل يُعد تركه لها حسمًا في صالحها أم أنها اعتبرت إصرارها على تركه حسمًا؟! يا ليت إنتصار الحسم لا يكلف صاحبه الوحدة. استحوذت الوحدة عليها حتى ابنها لم تستطع الحفاظ عليه. عندما بدا من باسل الجبن والتفريط، أرادت الظفر بابنها فوثقت في شيري، صديقة عمرها، فأعطتها إياه حتى تتمكن من الهُرب، لكنها استدارت وأوصلته لباسل ممنية النفس بنعيم كان في يد ندى، وغمرها العشم في أن تناله بعدما أعادت له ابنه وخلا المقام من صاحبته. لكنها خسرت جولة الخسة بعدما أعماها الطمع عن تمزق قلبه لفراق حبيبته خصوصًا بهذه الطريقة المذلة. كانت شيري من الأمور التي تأخرت ندى في حسمها حتى انكوت بنارها. كل الشواهد كانت تصرخ بأن هذه الصداقة لن تدوم، الاختلافات بينهما تُفرق أكثر ما تجمع، الشد والجذب السمتان الأساسيتان في أي لقاء، اللّهم إلا لحظات الحديث حول موضات الأزياء ومتعلقات النساء والجنس.. حاولت ندى إخفاء أسرارها الشخصية قدر ما استطاعت أمام طوفان شيري في إقحام نفسها في كل شيء. قدرتها مذهلة على مد عينها على ما في أيدي من حولها من نِعم، خصوصًا الأثرياء كباسل. فضلًا عن استراقها

السمع والتنصت لمعرفة الأسرار، تمارسه طيلة الوقت بلا شعور بالذنب في انتظار الفرصة لتنقض عليها. ندى غضت الطرف كثيرًا عن الضغط العصبي الذي خلفته لها شيري في مواقف كثيرة؛ بداعي تبريرات بلهاء يقولها كثيرًا أهل الحي على شاكلة أنها طيبة وغلبانة وتحبني على أي حال!

في أوقات محاولتي للتقرب من زياد والسمر معه، قص عليّ ما جرى لندى من خيانة شيري، فبادرته بعفوية بحتة وانتماء مخلص: "اللي يصعب عليك يفقرك"، لكنه قطّب جبينه بانزعاج من غاصت قدمه في الوحل، رافضًا هذا المنطق بكل ما أوتي من حماسة واندفاع أنساه للحظات أنه يكلم أباه، وصاح من قلبه "هو كل حاجة غنى وفقر، ما لازم نصعب على بعض هو احنا حجر احنا بني آدمين". زياد يذكرني بنبتتي الأولى التي لو اكتملت ربما كنت سأصير هو، لكن الفقر قتل هذه النبتة، لعن اللّـه الفقرا ويُخيل لي أن كمال عزازي هو أبو زياد كما هو أبو يحيى، أخذا منه رهافة الشباب والوجدان والإنسانيات، بيد أن كمال هو أبو الشباب، بل هو شاب لا يشيخ أبدًا!

ظنت ندى أن الهرب إلى مكتب أبيها المغلق منذ موته في السجن؛ بمثابة الاختباء في القسم، لن يطرأ على ذهن أحد أنها لا تزال في الحي بل في الشارع الأوسطي. الفكرة المجردة قد تكون صحيحة، لكن بالتعرض إلى معطيات حياة ندى تجدها قد جانبها الصواب. لأن باسل يعرف يقينًا أن بعد أبيها لا أحد لها، حتى أمها فالحياة ساءت بينهما أكثر من ذي قبل. أسوأ الانتقام ذلك الذي ينزف من

دمك. انتقمت ماجدة أم ندى من أبيها بالجور على ندى وشُحّ بذل الأمومة والود، وما زاد الطين بلة التعلق الذي حكم العلاقة بين ندى وأبيها منذ ولادتها، لم يجبرها أحد على الركون إلى عالمه، طبعها وافق طبعه، تكاد تكون خرجت إلى الدنيا لتستقر في كيانه قلبًا وقالبًا. ببساطة، ذلك ما تمنيت حدوثه بيني وبين ابني زياد. لكن ما باليد حيلة! اغتاظت ماجدة لاتساع الفجوة بينها وبين ابنتها، كانت ثُمني النفس أن تكون ذخرًا لها في مواجهة إبراهيم الذي لا يشاركها النهم في الحياة وفق ما تريد، وعلى الطريقة التي ترغب. لكنه كان بسيطًا لحد التساهل في حقوقه في سبيل غلق أبواب وجع الدماغ والمشاكل. ليس من موقع الضعف، بل من باب التباسط والحفاظ على هالته المستحقة للشخص المحبوب الذي يلتف حوله الجميع؛ دون النظر إلى مظهره المتواضع والبرنيطة الخواجاتي التي تنسلت خيوطها تخفي صلعته وتزيد من صعلكته.

بعدما وصلت إلى مكتب أبيها ردت الباب ثانيةً ثم ذهبت إلى آخر باب ستدقه لعله ينجدها، باب يحيى بديع!

للحق وإن كنت لست أهلًا له، فإن إبراهيم نجم كان شاعرًا ومترجمًا أريبًا متمكنًا، ومن السهل الشهادة له بالموهبة والإجادة. لكن سوقه مع دور النشر الكبيرة المشهورة لم يكن رائجًا على قدر موهبته؛ بسبب مظهره الرث الذي منعهم من التفكير فيه كأحد وجهات الدار حال نشروا له. فضلًا عن السبب الأهم اندفاعه في الكلام وافتقاده لباقة الحديث، وما يُقال في كل موضع ومناسبة. أكم من الندوات ومناقشات الكتب التي شحن إبراهيم أجواءها وأربك القائمين عليها بتعليق منه أو سؤال جريء يمس السياسة

أو الدين. وقد يكون بعيدًا عن موضوع النقاش من الأساس، لكنه ببراعة ومنطقية كان يلضم الصلة بما ينم عن واسع معرفة؛ ويلقي بالسؤال كأنما رمى بقنبلة يد وسط الحضور الذين لا يخفى عليهم تواجد البصّاصين وناقلي الأخبار من داخلهم وخارجهم. كنت شاهدًا بحكم علاقاتي في المجال على إحدى محاولات دار نشر كبيرة للاستفادة من موهبة إبراهيم نجم لكن من وراء حجاب بما يؤمّن لهم عدم إثارته للمشاكل والزوبعات، بالإضافة إلى ضمانة عدم حضوره في الواجهة حتى لا يخدشها كما ورد على ألسنتهم. عرضت الدار عليه عبر وسطاء أن يقوم بترجمة بعض الأعمال مقابل مبلغ كبير يليق بموهبته لكن دون أن يُكتب اسمه على الكتب، على أن يتم التعاقد رسميًا على ذلك. ارتكزت الدار في عرضها على إغراء المال دون التدقيق في شخص نجم المتكيف مع يده القصيرة وجنونه المطلوق. هاج إبراهيم وماج وعلا زعيقه وشخراته وسباته إلى آخر الحي المترامي الأركان، ولولا أن الوسيط كان حذرًا كفاية ويعلم مدى حدته؛ فأخر الإعلان عن اسم الدار الذي لم يعلنه؛ حتى يرى ردة فعله، لعلم الحي كله بهذه الواقعة بالتفصيل وأكلت الألسنة الدار الشهيرة.

لا داعي الآن من ذكر اسم الدار، فقد تغيرت الوجوه ولكل وقت أدمغة تحركه.

ورقة بيضاء 40

موهبة كبيرة ظلمها طبعها الحاد فتلقفه صِغار الصناعة على أفضل وجه، هو كنز حقيقي لهم. تميزه في الترجمة كأديب أكثر

منه كمترجم أذاع صيته عند القرّاء؛ مما جعل انضمامه إلى أي دار نشر صغيرة بمثابة شهرة لأعمالهم. لكنه ذاق المر من ورائهم؛ مُر فتات الأجور وسهولة تزوير كتبه. كنا نحن عتاولة التزوير نستوطي حائط أولئك الدُور الصغيرة التي لا ظهر لها؛ فنضربها على بطنها بتزوير كل أعمالها. السوق نملكه ونفوذنا أعلى وأقوى منهم بكثير. كنا لا نعمل لهم حسابًا مثلما نفعل مع الدور الكبيرة. كنا نزوِّر كتبهم بدم بارد وبال ساكن. تلك الدور تعرف جيدًا إيجاد مواردهم التي تحفظ لهم السكر، من بينها مص دم الكُتاب المبتدئين مقابل عدد من النسخ المطبوعة التي تساوي ما دفعوه. وفي الغالب لا يستطيع الكتاب تصريفها فيهدون الأقارب والأصدقاء جزءًا قليل ويتبقى البقية غنيمة للتراب. ومن وفير غيظه وشعوره بالظلم ولسانه الذي لا يسكت وعدم قدرته على النفاذ داخل بؤرة الكُتاب الكبار الذين يوفرون لكتبهم الثقل والشهرة والمكسب والحماية؛ صب إبراهيم نجم جام غضبه على مزوري الكتب، كان الهجوم علينا هو وِرده وذكره الذي لا يفارق لسانه. يفض مأساته في كل مجلس وعند كل مقهى، يحاول تأليب الكبير والصغير علينا، دون أن يعرفنا، يحارب طواحين الهواء بدون أن يعرف مصدرها، يكاد يجن كلما شاهد كتبه مزورة مفروشة على الأرصفة. ومن الخبل تصور أن يجيبه أصحاب الفرشات عن مصدر الكتب، بل من السذاجة تخيل أنهم يعرفون مصدرها. مضى زمنٌ طويلٌ حتى نال إبراهيم نجم التبجيل أخيرًا من بعض الشباب العشريني المقبل على حياة الصحافة؛ خصوصًا بعدما طاف الشباب على سطح الحي. بدأ نجم إبراهيم نجم يلمع في احتشام، أولها حوار صحفي دار في مقهى بسيط، في أواخر عمره،

نزل مع صورة له بطول الصفحتين بقميصه الرث وأسنانه المهترئة، وقد اختير المانشيت الكبير للحوار من جملة ما قاله بنبرة قائد لا يجد قوت يومه "تزوير الكتب حربي الكبرى".

على ضفاف ظهور يحيى على الشاشة ليتحدث عن ورشة تعليم الموسيقى، استعان به فريق إعداد البرنامج ليرشح شخصية ذات بُعد ثقافي لإحدى الفقرات. فكعادته لجأ إلى كمال عند كل حيرة، فطغى عليه الحب حتى أفقده حرصه، فأراد أن يساعد ابنه يحيى في الوصول لفلوّعته، بمد جسور التعارف والتواصل فأشار عليه أن يقترح عليهم أبوها الكاتب المترجم إبراهيم نجم. استطاع كمال أن يخفي عليّ اقتراحه بتقديم لحمنا ينهشه المترجم الحزين على كتبه المزورة، ربما باغتته استفاقة متأخرة بصرته أن ما فعله سيفنجل العيون حولنا. تهلل الناس في الشارع الأوسطي لظهور إبراهيم نجم على الشاشة كأن طالتهم نفحة من عدل. ظهر نجم يمثل الهاموش يزنّ في ساحة الأكابر. جلست في الطل في الطاولة المكتوبة باسمي بغير عقد أشاهد الحلقة بجواري كمال يتلفت كالنشال. بالطبع لم يُكذِّب إبراهيم الخبر أو يفوّت الفرصة، صال وجال وأخذ الوقت كله في الحديث عن مافيا تزوير الكتب والمآسي التي يعانيها معشر الكتاب، والإجراءات التي يجب أن تتخذها الجهات المعنية لتحجيم هؤلاء المجرمين؛ ومن ثمّ القبض عليهم لتهديدهم الفج صناعة الكتاب بالكساد، والكُتاب بالضياع والتشرد. سخنه المذيع الشاب وطلب منه أن يكون أكثر تحديدًا، اتلسعت دماغ إبراهيم بالنشوة إذ صار له منبر ورأي ومشورة يدلي بها في العلن، استمر المذيع في استعطافه ليبوح بها، تردد للحظات ثم قال:

- يعني بدون ذكر أسماء أهم تلات مطابع للكتب المزورة موجودين في النص التاني من الشارع الأوسطي في اتجاه الميدان.. مش هقول أكتر من كده والمسئولين يدوّروا بقى.

حررت أحا من مخدع لساني، وحرصت ألا يترجم مغزاها زبائن المقهى وقلت لكمال الذي انكمش في جلسته:

- إنت فهمت اللي يقصده ابن الكلب ده.. الدنيا اتقلب حالها ازاي يطلعوه في التلفزيون أصلًا.. مين صاحب الشورة المهببة دي.. أكيد يحيى.. هو بروح امه عشان يوصل للبت يطلع ميتين أبونا احنا!

في لا مبالاة تعِلّ الصحيح قال كمال:

- أنا مش يحيى!

ورقة بيضاء 41

عرفت منه الحكاية، ففضبت أيما غضب وجذبته من تلابيبه ألعن أبو أم الذين أنجبوه، وقبضت على كفه أكاد أهشم صوابعه في قبضتي. أأنت يا كمال الذي تضعنا تحت ضرس هذا البائس ليدق مسمارًا صدئًا في خبيئتنا؟! قصم ذلك الموقف آخر ما تبقى من صبري على إبراهيم نجم، وتسبب في قطيعة بيني وبين كمال لشهرين كاملين، ما كان يتصور أحدنا يومًا أن تحدث.

صرخت في وجه كمال؛ لن يصعد يحيى روميو إلى ندى جوليت على قفايا، ولا حتى قفاك ولو منعتك بالقوة. كرست عفاريتي المنتشرين في أرجاء الحي لنقب جدار نجم، تحركاته كلها تصلني بالأخص عند دور النشر والمطابع. بعد اللقاء التلفزيوني بوادر

زهزهة استهدفت حياة نجم، ألوان الربيع التي شملته لم تُثنِه في كل مناسبة عن الندب من التزوير عند كل مفرق. فأخذت إجراءات عاجلة بتوسيع دائرة توزيع كتبه فوق الفرشات حتى يظهر للعيان أن وتيرة التزوير قد قلت، بينما هي زادت واتسعت لما خارج نطاق الشارع الأوسطي إلى بقية شوارع الحي الكبير الممتد. لكنه تشرس علينا بالقول أكثر، تمادى في التلميح بما يجعل التصريح إن حدث وجبة باردة مملة، وناهيك عن أنه لا يملك جراءة التصريح، مجمل الأوصاف التي يعددها تشير إلى المطبعة وأصحابها. يقص ويروي تفاصيل التقليد والتزوير الدقيقة التي ننتهجها، لدرجة أن رأسي استضاف الشك لأيام؛ حتى نهضت يومًا من نومي الثقيل الذي خف من القلق، ورحت إلى المطبعة أمشط جوانبها وأقلب سافلها أعلاها بحثًا عن أية كاميرات وُضعت خلسة، ولم أجد شيئًا!

في الأيام التي ولت كنت لا أخشى كل هذه الترهات، كنت لا أعمل حسابًا لكل من يتفوه بحرف يمسني هو وغيره، كانت أذناى واحدة من طين والأخرى من عجين. كنت أقول لكمال وخرطوم الشيشة يزغرد في فمي؛ يفلقوا رأسهم في الحيط، أرجل ما فيهم مَرَا! لكن الحي تتبدل قواه وصار الكبار المسلسلون في السلطة في حاجة لمن يسندهم. وبعدما انزاحوا من الصف الأول خشيت من راقات الصفوف التالية، أولئك الخنازير التي ستستحم في ماء الطهر على حِسّنا للنجاة من فورة التغيير إن فارت. علمت أن دار ازدهار سعت لنشر أعمال إبراهيم ونجح السعي. كانت نقلة هائلة في حياته كمترجم كفيلة أن تلهيه في حاله ويحل عن سمائنا وتُوقف سيل المظلومية الذي يغرقنا فيه، لكنه استمر باستماتة؛ وأبلغتني

عيوني بشروعه في التصعيد وإبلاغ الجهات المختصة بشكل صريح ورسمي بكل المعلومات التي يدعي معرفتها. الدار الجديدة قوّت قلبه، لكنه كان واهمًا؛ إذ إن مفاجأتي القاضية كانت الأسبق والأسرع والأقسى والأوسخ!

ورقة بيضاء 42

- يعني ايه سِدغ يا طنط ندى؟

خرج السؤال من فم (غيمه) رقيقًا برئيًا تترنح نبرته بين الطفولة والصبينة؛ برغم تأكيدها عليه مرارًا بألا يناديها بطنط تلك، لكن انكساره يغلبه كل مرة.

سمع الكلمة منها قبل لحظات فاستلفتته. ابتسمت ندى وقد بدا على ملامحها استحسان ذكائه فأجابته:

- سدغ يعني غتت وتنح وكلح ابن وسخة زي الاتنين اللي انت سامعهم بيتكلموا في التلفزيون ده.. أبويا كان دائمًا يقول عليهم كده.. وفي الآخر هما الاتنين اللي قتلوه!

أشار يحيى بألا تستفيض في تلميحات القتل وخلافه أمام الصبي الذي تسكنه الرهبة بطبيعته. كانت تقصد نبيل عجب وأمجد يوسف اللذين توسعا في عمران الاستوديو، وتورد وجه أمجد وزاد وزنه من أثر العز. ومارس ألعاب السيرك اللسانية والمشي على الأحبال أكثر من ذي قبل.

التفتت ندى إلى زياد الذي صار من أهل غرفة الانسجام وإن كان ليس بعازف تخاطبه بمودة، وقد انتصفت سيجارتها المشتعلة في

يدها دون أن تشربها:

- معلش يا زيزو أنا عارفة إنك بتحب نبيل عجب ومتأثر به، بس اللي بيني وبينه تار هو والكلب التاني ده!

تنهدت ندى في حسرة وأسى عظيمين. طبقات من الألم المثقول فوق صدرها بلا انقطاع. حكت بصوت مسموع. أتذكر وجه أمجد النحيف قبل سنوات حينما جاء بصحبة أبيه إلى أبي يطلبان يدي. إكرامًا لأبيه الطيب أجّل أبي رده الفوري الذي كان حاضرًا في ذهنه لا يتطلب تردّدًا؛ متحججًا بمشورتي وهو أعلم بي مني! لم يفاتحني في الأمر من الأساس. حبيبي يا هيما كنت أغلى ما عندي. إذ كيف يقترن اسمي باسم ذلك الذي تبدت سيرته النجسة كرائحة طفح المجاري. تعرض لي وقتها مرات يدعي الحب ويضرب بولعه الأمثال، بينما كان صدّي له كحدف الزلط، حتى إنني اندهشت من بجاحته وجلده السميك حين عرفت مجيئه إلى أبي.

انتظر أبي مرور ثلاثة أيام ثم أرسل يدعوه وحده في مقهى بسيط دون أبيه.

ورقة بيضاء 43

أتاه أمجد على عجل متيقنًا من الموافقة، فاردًا ريش طاووسه، وقد أخبرته مرآة نفسه أنه فرصة لن يرفضها المترجم الكحيان، إذ أنه أصغر مذيع ظهر على الشاشة، وأسرعهم اختراقًا لدوائر السياسة ونواب الحي كأنه جمع في لسانه تفقه هارون وفي يده عصا موسى، ومن تحسبه موسى يطلع فرعون!

- شفت الحلقة الأخيرة يا عمي؟

- كنت نايم بس اتحكى لي عنها!

سلك نجم طريق المراوغة مع أمجد يوسف، وهو أبو المراوغات وصاحبها وأهلها.

- ربنا يخليك يا عمي. بنحاول يبقى لنا بصمة جديدة.. وحضرتك كاتب كبير لك وزنك إن شاء اللّـه تبقى ضيفي في البرنامج قريب.. أكيد الناس هتستفيد.

يا بن الكلب ولو إن أبوك لا يستحق الشتيمة، أنت بدأت التناحة مبكرًا، أنا لست عمك ولن أكون إلا على سبيل رقع صداغك يا سِدغ. ومنذ متى تعرف الكُتاب كبيرهم من صغيرهم؛ أو تهتم بالقراءة أصلًا؟! لا يعنيني أن يعرف وزني عيل أفاق عرص مثلك. وزني أعرفه جيدًا رغم أنف دور النشر والنقاد الذين يتعمدون تجاهلي!

تجاهل إبراهيم الرد على عرض الاستضافة في البرنامج واكتفي بابتسامه فاترة، ثم استمر في جذبه على حِجره قائلًا:

- كويس إنك عرفت تقنع البنات اللي اتعرضوا للتحرش إنهم يظهروا ويحكوا اللي حصلهم.

ألمع الإطراء عينيه ثم قال بأسى خلوق من ذوي المهام الثقال:

- واللـه عملت مجهود جبار.. بس كان لازم ده يحصل.. عيال سَوّ ماشيين يلقحوا جتتهم على بنات الناس.. أهاليهم طافحين الدم عليهم. بس الموضوع أولًا وأخيرًا الأخلاق نفسها، لا له علاقة بغنى ولا فقر.. زي ما أنت عارف يا عم إبراهيم أنا دلوقتي بقابل وبقعد مع

كبارات الحي، بعرف مهازل وجرائم تحرش واغتصاب وشذوذ وبلاء أزرق عيالهم بيعملوها رغم إنهم مش محتاجين فلوس ويقدروا يتجوزوا!

رمقه إبراهيم كمن ينظر إلى كذبة متجسدة:

- بس أنا زعلان منك يا أمجود.

- ولا أقدر.. حبيبي انت أبو الغالية.. خير؟

- ينفع يا رجل تنسى تطلع الواد بُرص صبي القهوة معاك في الحلقة!

أشار إبراهيم ناحية بُرص الجالس مُنهمكًا في تصليح درج البنك الذي خربه المعلم بسيط للمرة الأولى بعد المليون. بينما كان أمجد يحترق عاريًا في النار، إذ فهم ما يرمي إليه حفوه المُتخيّل في دماغه قبل أن ينغز باطنه ويشويه بسر بُرص، ثم أجهز عليه قبل أن يزدرد ريقه ويلم بعثرته:

- عشان بس خايف على أبوك يروح فيها مش هعمل زيطة ولا هخلي الخمسة ستة اللي عارفين إن الواد بُرص يبقى المعرص الخصوصي بتاعك يبقوا الحي كله.. وسرك في بير كمان مش هقول النسوان اللي بيجبهم لك بيعملوا فيك ايه، بس تنسى إني عندي بنات من أصله ولو عرفت إنك لقحت جتتك على ندى تاني هقطعلك المقطوع.. قوم يا سِدغ يا خول من هنا!

انصرف أمجد يتوعده بالذبح!

ورقة بيضاء 44

أمجد ابن ترزي الحي الأشهر يوسف شطا القارئ النّغوب المحبوب، الذي لم يكمل تعليمه وأحبه الجميع وأجلّوه وأهاب الأفندية الدخول معه في نقاش معلوماتي. يخلق حيًنا من ظهر المثقف المغمور المِيح المشهور. أمجد الذي يأكل الشاشة بلمعانه وتوهجه وثقته التي إن وزعت على موهوبي الحي الحقيقيين لكفت وفاضت. كان أبوه أمام عيني - أنا الرواي العليم - يكاد يقبل يده كي يقرأ صفحة واحدة لا كتابًا كاملًا. يوسف كان مثاليًا حالمًا، وربما لم يستطع التعصر والزحزحة عن الأحوال القديمة. إذ يرهن نجاح الإعلامي بسعته من المعرفة والثقافة. ولعل تمسكه بهذه الأفكار التقليدية حجب عنه دقة النظر في مواهب أمجد العصرية التي مكّنته من الصعود فوق كل الكتب التي قرأها أبوه. الارتجال والإقناع والتنقل بين المنطقيات في ليونة راقصة باليه دون إظهار سوءة تناقضاتها. يبدو أن يوسف شطا قد اعتبر سعة القراءة التي سدت ثغرة تعليمه هي الفردوس الأعلى. بيد أن الإنسان ينطلق من فكرة أن العالم كله انعكاس لما يعرف. قاس يوسف الأمور بما برع فيه وأسعفه، فلا يتصور ناجحًا في أي مجال دون قراءة؛ حتى لاعبو كرة القدم يسأل عما قرءوه كي يتحصلوا على كل هذه الأموال الطائلة.. قد يظهر منهج التفكير هذا صحيحًا في مطلقه، لكن وحده دون الأخذ في الاعتبار الاختلاف والقدرات المتغيرة من واحد إلى آخر يصبح عائقًا أمام الإنصاف والحيادية. أنا لم أقرأ واحدًا على عشرة من المائة مما قرأه كمال ويوسف وكانت الأموال لا تفارق جيبي وكانا بالكاد عند كل أصيل يتحسّسان قوت يومهما؛ ألا يعد ذلك نجاحًا؟! غفل يوسف عن مجمل مهارات أمجد مقابل أنه لا يقرأ، بل توقع له الفشل مما أحقن صدره

فتقطعت السبل بينهما، وساح الغل والعناد في صدر أمجد حتى أصبح النجاح لديه مسألة حياة وموت، وغاية لا تستلزم فحص الوسائل، ولا عيش إلا بدونه مهما ذاق وتكلف!

اشتهر أمجد في مقتبل أيامه قبل أن تزهزه معه وتسير المياه في مواسير محفظته؛ بحرص مرشحي انتخابات الحي على كسب وده قبل الانتخابات، لأن معنى ذلك أنه سيلقي خطبة عصماء عصرية تخالطها الحكمة والحنكة وتخامرها الفكاهة وخفة الظل الممزوجة بالحركات البهلوانية، كأنه يعيد تقديم رواية استعراضية فوق مسرح الحي المهجور. كل ذلك دون أن يصرف أذن الناس عن سماعه وعقولهم عن بلع ما يروج له، وأكل ما يقدمه لهم من وجبات أعاد تسخينها عند كل طاولة انتخابية يجلس قبالها في كل شارع من شوارع الحي.

ورقة بيضاء 45

لم يكن أمجد يوسف واحدًا من الطلاب البارزين في كلية إعلام، ولا ثبتت صورته في ذهن أو مخيلة أحدٍ من أساتذته، الذين صاروا مغمورين أمام شهرته. ولم تنته هموم الناس حتى يتفرغوا لمراجعة حياة أمجد يوسف الجامعية، لكنها اقتحمت بيوتهم في وصلة ردح معتبرة من أحد مناكفيه اللداد الذي يعش وراء تاريخه بتفانٍ، ساعتها برهن الرجل على فشله كإعلامي أن تقديره الجامعي كان سيئًا مع حصوله على السنة في اثنتين أو أكثر. لا شك أن السر ليس خطيرًا بل وتسقط أهميته مع الأيام؛ خصوصًا لو صاحبه أثبت كفاءة ومهارة ونجاحًا لا يقترب منه أحدٌ في الحي ومحيطه الكبير.

لا يزال الساذجون في الحي يقيسون النجاح وفق أرقام الدرجات الدراسية، ما أشد الخبل! إذ كيف لساعتين أو ثلاثة على الأكثر أمام ورقة اختبار وضعت أسئلتها في ساعة تحكمت فيها الحالة المزاجية والدماغية لواضع الاختبار؛ أن تحكم على إنسان بالنجاح أو الفشل، الذكاء أو الغباء؟! ذاك الرداح الذي أفشى سِرًّا حسبه عظيمًا وهو هين أمام المجد الذي وصل إليه أمجد. تناسى أن أمجد يملك ما يفوق الدرجات، جملة من الملكات لمعتها أكثر رضاء الأعالي عليه فعجلت بصعوده إلى حدود الشمس، أو بالأحرى قبالة الشمس لأنه من المقربين الذين يُكشف لهم عمن راحوا وراء الشمس!

ورقة ملونة 7

من لحاظ الطبائع أستطيع الزعم أن في تركيبة أقدار غير ذي الأقدار، كان كمال عزازي وإبراهيم نجم سيصبحان صديقين وطيدين، متفقين فكريًّا، قريبين لحد التطابق في طريقة النظر إلى الحياة؛ اللّهم إلا الفرق بينهما في عزم الزهد. لا خلاف لديهما على لذته لكن كمال يميل إلى تمامه فلا يرمش أمام لون صاخب من ألوان الحياة. بينما إبراهيم بحكم الموهبة التي تسعر في صدره قد ترك الباب مواربًا للدهشة والتعلق، ولعل ذلك ما جعله يحارب لآخر نفس في معركة تزوير كُتُبه ويطمح في الترقي بين المترجمين، ويناكف في المطلبة بحقه بلا سماح ولا تفريط. بل إنه حريص على أخذ نصيبه من الحياة دون أن يسمح لها بسحب مقعده الأثير من الزهد.

ورقة بيضاء 46

في الاستوديو تجمع الضوء الباهر فوق وجه أمجد كأنه المُريد

لا يزيغ بصره عن الوليّ. انعكاس الإضاءة على وجهه أزال الهالات السوداء من تحت عينيه لمدة ثلاث ساعات زمن الحلقة اليومية؛ لا يسكت خلالها إلا للخروج إلى فاصل ولا يُضبط يقرأ من ورقة قط. يملك قدرة فولاذية على الحفظ والتنميق والإلقاء والتلوين. ولا تستطيع معرفة أيهما سحر الآخر أولًا، هو أم الكاميرا. يقلب المنطق كيف يشاء ويشاء له الهوى بكل إقناع وحماس لا يفتر. يجيد إطلاق صفارات الغارات، يتناول كل موضوع في صورة معركة يخوضها بلسانه على الهواء أمام الأعيان، وقد أسعده زمانه فجمع الحُسنيَين؛ انتصار الفتوات وتهليل المهللين في آنٍ، ينتصر ويهلل حتى تكاد لا تسمع في الساحة إلا خبطاته وقهقهاته.

استطاع الغطس في المياه الجديدة ببراعة غطاس لا يهتم لنظافة الماء بقدر ما يهمه وجوده في الماء. فجاء اليوم الذي يقوم عدو القراءة بتخصيص فقرة عن مستقبل الثقافة في الحي الجديد.. الانتقام يُبيح الغرائب.. تبّل ما قبل الفاصل ببهارات التشويق بكشفه عن أمر خطير، فزادت غلة الإعلانات وعلت وتيرة الترقب وارتفعت نسبة المشاهدات كلعبة الزئبق في الملاهي؛ الزئبق الذي يصعد إلى العنان في لحظة بخبطة الشاكوش.

الحقيقة التي لا يعرفها إلّايَ ونبيل عجب أن هذه الفقرة من إعدادي أنا الراوي العليم، كنت كارت الولد المخفي عن العيون الذي قش بقية الكروت بما أعلم من خبايا، فتجمعت عندي قطع البازل المتناثرة لأبيتنهم عاشقًا ومعشوقًا؛ مكونًا الشكل النهائي للخلاص من نجم. أنا من خططت ونبيل وأمجد نفذا، نجحت في اللعب على الوتر الملتهب لدى نبيل عجب شريكي في المطبعة السرية وربطته

بالوتر المشتعل عند أمجد يوسف؛ لنقضي ثلاثتنا على الثرثار المؤذي بضربة واحدة قاصمة. أوصلت التفاصيل التي جلبتها عيوني من دار النشر إلى نبيل عجب، أخذ ما ألقيته في حجره وراح اتفق مع أمجد على مداخلة كنت متيقنًا من صداها بعدما نوى الذبح، فقدم الفقرة محقونًا بحماس الرغبة في الخلاص من إبراهيم نجم.

ورقة بيضاء 47

فرد أمجد الحبل النحيف ثم صعد يتهادى عليه في مرونة ورواقة كأنه بجوار النهر. وقال:

جاءني مداخلة من الصديق العزيز الأستاذ الكبير نبيل عجب، حرص على المداخلة لأهمية ما لديه، أو كما نوّه، لمنع وقوع خيانة تتم هذه الأيام في الحي:

- أهلًا بك أستاذ نبيل اتفضل..

- أهلًا بحضرتك يا أستاذ أمجد.. لا أطيل على المشاهدين أقولها صراحةً وباختصار، قولًا واحدًا، حيّنا النبيل المبارك يكابد عناء صد شر أعدائه في الخارج والداخل، ومَن في الداخل هم الأسوأ والأحقر، يتخفون من أجل تمهيد الطريق لأسيادهم وأولياء نعائمهم في الخارج. لا يتوانون في ضرب الحي في شتى المجالات الممكنة، حتى وصلت الدناءة إلى حد معاونة العدو السنكوحي الغارق في ماء الشيطان.. يا أخي إيه الحقارة دي.. لك أن تتخيل إلى أي مدى وصلت البجاحة وقلب الحقائق إلى تشويه معركة الحي الكبرى، التي وقعت قبل خمسمائة عام على أرض حيّنا العظيم.. الموضوع ببساطة أن أشهر كاتب عند العدو السنكوحي عمل كتابًا مزورًا فيه

حقائق وتفاصيل هذه الحرب النبيلة لصالحهم، طبعًا الكتاب أصبح مشهورًا في العالم كله.. السفالة تتجلى يا أستاذ أمجد في أن يقوم مترجم مفترض أنه ينتمي إلى حيِّنا - لن أقول اسمه حتى لا يتمكن من الهرب - لكنه باع نفسه لشيطان المال؛ يقوم بترجمة هذا الكتاب وبالفعل الكتاب بدأ توزيعه على المكتبات.. الكتاب يقدر يعمل غسيل مخ لشبابنا ونتفاجأ بجيل يشكك في انتصارنا.. بل إن فيه بعض الروايات اللي بتقول إن ما تبقى من ذكرى هذه الحرب الشريفة هو مربع الماء الأخضر في المسرح المهجور، أو كما اعتاد الناس تقول عليه ماء الشيطان.. وبعدين هتقول لي الكتاب تم ترجمته في كل الأحياء ودي سماوات مفتوحة ما حدش يقدر يمعنها ودي حريات، هقولك آسف السماوات بتتقفل وقت المؤامرات ولا مجال لحرية الرأي في الخيانة، وقطعًا ترجمة هذا الكتاب مؤامرة وخيانة كبرى وسعي للتربح وكسب ود الأعداء بتبنِّي أكاذيبهم وترويجها، ويجعلنا نستقبل أجيال جديدة غرباء عن نفسهم وتاريخهم ويبقوا صيد سهل لأي حاقد شرير.. عمومًا كل تفاصيل هذه القضية أصبحت على مكتب أمن الحي الذي نثق فيه ثقتنا في الأنبياء والأولياء.. حمى اللّـه الحي وأهله.

بعد ساعات قليلة اللتقط السادة الذين ينامون ولا يغفلون كرة النار التي ألقاها أمجد ونبيل، فسكنت قلب إبراهيم نجم، الذي ذهب وراء شمس الحي ولم يعد ليخبرنا عن حشواها، ليرحل كمدًا من ظلام الحبس إلى ظلام القبر!

لمحة عابرة على الشاشة استطاعت أن تهيل تراب الذكرى القاسية فوق رأس ندى، ربما أتتها في لحظة كانت مهيأة فيها لاجترار

الشجن، بعدت برأسها عمن حولها، سرحت وشردت حتى وصلت إلى استعادة اللحظة القاتلة؛ وما أكثر اللحظات القاتلة؛ حين لم يستطع أحد صد الأذى عن أبيها بينما الجميع يشاهد ويسمع رصاصات السُذغِين على الهواء تطحن قلبها قبل أن تدهمه بالموت. لا ينمحي عن نظرها تحولات وجه أبيها في هذه الليلة النحس من تمام الصحة إلى انعواج الشلل. كأنه كابوس مريع لكنه كان حقيقة عاتية.

انتبه الرفاق حول ندى إلى خيطين من الدموع ينسدلان على خديها في تكتم يخفي نهرًا لا يجف. فقرب يحيى علبة المناديل إليها بينما انبرت سارة الممسكة بالجيتار كسلاح العهدة تعاتب غيمه في مرح مقصود لعله ينجح في تلطيف الأجواء:

- يا ريتك يا حسن ما سألت عن السُدِغ!

ورقة ملونة 8

أفقت من الإعياء المفاجئ الذى أصابنى وأثقل دماغى فوق المكتب ككرة الحديد من مرتفع؛ فوجدتني مستلقيًا على السرير القديم في غرفة النوم المغلقة منذ موت زوجتي. كان الصداع ينكح رأسي وبيد أنه يتبقى لي أيام يقتات عليها عمري، وإلا فكيف أفسر الطريقة التي نجوت بها؟! إذ في مدة إعيائي التي لا أعرف مقدارها؛ خطرتْ على بال أيمن بارى فهاتفنى ما يزيد على الخمسين مرة دون رد، هو من القلائل الذين يعرفون بوحدتي بعدما تركني زياد؛ فخايله القلق فجاء لينقذني ويؤجل موعد موت لم يحن بعد. كان من حسن التدبير أنني أعطيته نسخة من المفتاح. كانت ولا تزال حكايات الذين يموتون فرادى في منازلهم وتشي رائحتهم بموتهم؛

تزيد همومي وتخيفني أكثر من الموت نفسه. ويبدو أن أيمن قد استقرب الغرفة التي تجاور المكتب وأدخلني فيها. الأوراق كانت همي، تحججت بالذهاب إلى الحمام ورفضت مساعدته بكذبة أنني متزن، ورحت إلى المكتب سريعًا أتأكد أن نعكشة الورق كما هى دون حراك. كان أيمن ملهوفًا عليّ كل ما يهمه أن أكون على ما يُرام، ذلك ما قلل وتيرة القلق بداخلي وجعلني أشعر أنها مرت بسلام، أبلغني أن الطبيب أبلغه أنني أجهدت نفسي بدنيًا بما لا يتناسب مع مثلي من مرضى القلب والسكري، والظاهر أنني تعرضت لبعض الضغط والضيق والحزن بجوار إهمالى لمواعيد الأدوية. شك الطبيب فى الحزن لكن يا ثُرى هل يعد الندم حزنًا؟ والغريب أن ذلك حدث في اليوم الذي بدأت الانتظام فيه بتناول الدواء، ولا أعلم إن كانت سيرة إبراهيم نجم هي التي أعيتني أم الندم على ما فعلته به أصاب أجهزتي بالسكتة!

تعالَ يا كمال لترى صديقك الجامد القاسى الذى يتخلص من مشاعره تخلصه من الخراء، وهو يندم ويتألم ويعض الأنامل!

ورقة بيضاء 48

تعكر مِزاج ندى بعدما طل السدغ على الشاشة، وقد حزمَت ظهوره في بيتها، اختارت السهل الممتنع في الهروب، أن يظن المطاردون الباحثون عنها؛ باسل ورجاله، أنها خرجت من الشارع الأوسطي بينما هي لم تغادره، تسكن وسط زحمته وزمرته وصخبه، ونداءات البائعين الجوالة وأبواق سياراته، وصرخات مقاهيه مع الأهداف، وتأوهات مرضاه ونهيق حميره ونُباح كلابه، وطيش شبابه وتقصع

شاباته، وآهات نسوانه، واللعنات المصبوبة على السادة من كل صوب دون أن تصيبهم بسوء! تسكن ندى في عز معمعة الشارع في شقة تعانق الروف من العمارة التي ورثها يحيى عن أبيه. الورشة بالأسفل وهي بالأعلى وشقة يحيى في المنتصف. وتمكنت المرارة منها فتجاوزت المقاطعة إلى حذف القنوات الإخبارية والحوارية كلها. كرهت الإعلام في الأولة لما جرى لأبيها من رأسه، ثم الصحافة في الثانية للهجمة التي شنوها فدفعت باسل الذي يوتره الضغط للخذلان. لم يتحمل أن يقول الناس عليه زوج ابنة الخائن المسجون، تركها من قبل أن يتيقن أو يسأل، هكذا ظنت أنه قراره، ذلك الظاهر للجميع لكن المخفي أن اتصالًا نزل عليه كالمطرقة، طلّقها فطلّقها!

لطالما حرضت زياد كلما حدثته كأخت أكبر منه كما تدعم مقدمة حديثها؛ بأن يترك الصحافة التي تقهر الناس وتفرق بين المرء وزوجه. لكنه كان يسمع ويصمت ويهز رأسه ويعبر النصيحة عبورًا آمنًا حتى دون اعتراض ولا تذمر، وبرغم أن ما أسهل عليه إن يباغت محدثه بقول: "أنا حر"؛ لم يقلها؛ كان يحب ندى، ربما عبّر عن حبه لها بأكثر ما عبر عن حبه لأي شخص آخر. وكثيرًا ما قال لها إن لديها طاقة جذب للمحبة فريدة.

ليلتها كانوا متجمعين في غرفة الانسجام دون أن يتخلف أحد، رفقاء العزف والنزف، الأربعة العازفون: يحيى وندى وأحمد وسارة، وخامسهم زياد، وسادسهم صبيهم الطيب ابن العاشرة؛ غيمه. يبدو أن يحيى قد استوقفته ملفّة فأشجنت وجهه على إثر تذكر ندى لمحاولة أمجد خِطبتها، بخلاف تأثره من دمعتها، لم يكن يعرف شيئًا عن هذا الأمر. وقتها خاف عليه كمال من الكدر فأخفى عليه، حتى

دبحه فجأة خبر زواجها من باسل قمر. انتهز يحيى فرصة الشجن الذي علا فضاء الغرفة، واقترب من ندى هامسًا يسألها في احتراق:

- إنتِ إيه سرك؟! وليه كلنا بنحبك؟!

اخترق الصمتَ الذي حل دون سابق إنذار صرخةٌ مدويةٌ وفرحة قوية أطلقها غيمه، يرفع قبضة يده للأمام ويهزها: جووووووووووووووووووووووووووووووول.

ورقة بيضاء 49

تربست ندى باب شقتها في انتشاء مغاير على الكآبة التي شكبت عليها في الساعات الفائتة. تهربت بالطناش والتمويه من إلحاح سارة على مرافقتها لاستكمال السهرة في الشقة. أرادت البراح أكثر من أي وقت مضى، غربل كدرَها السؤالُ الذي ألقاه يحيى، رمى بها في جزيرة النشوة التي ظنت أنها فارقتها بلا عودة. مس وترًا مغرورًا في خلطتها تعرفه عن نفسها، ويعجبها، كثيرًا ما انغرم به كيانها الذي لم يمتَزْ بأنوثة صارخة الجمال؛ بقدر ما امتلك جاذبية سحّابة كالهالة؛ ظللت وجهًا قمحيًا محددًا ذا ملامح حية تنطق بالخاطرات الساريات في القلب والمخ على الفور. لم تسعَ أن يلتف الكثيرون حولها قط، وإن سعت فلن تنجح، ولكن سعى الالتفاف إليها، بمثابة قدرٍ شملها لا فرار منه، اكتشفت بداخلها مع الوقت بروز لذة تخالجها مع طواف المعجبين، كأنها ثُبِّت قواعد إعتداد وغرور وثقة بالنفس، وثُبِت لنفسها ما جال في صدرها ولم تقله بأن جاذبية الغموض وعناصره العسيرة على الفك وكحلها الفاحم؛ أشد تأثيرًا من الجمال الباين الذي يأكل العيون ويذهب العقول. ندى لا تحب العقل الذاهب، هذا كل ما

ورثته عن أبيها، التيقظ. فلولا التعقل لساقتها العاطفة إلى المنحدر. في الأيام الأولى الصّبوح بعد المراهقة جرحت يحيى بسكين الودادة إذ لم تذبحه بالرفض القاطع، قابلت تلطفه بمودة تزيد من حيرة وعشم وأمل وحرقة المحب الذي يبذر بذرة حبه في قلب شارد عنه فتخرج النبتة زَقُّومًا يشوي قلبه وباطنه وعمره. أحيانًا تكون القسوة من مقبلات الرحمة! لم يكن يعلم أن قلبها مع غيره، ولكن كل حواسها كانت تشير إلى أن الكلام ليس عليه ولا العين تتكحل له ولا القلب يزيد نبضه لمرور طيفه.

ورقة بيضاء 50

بيد أن حقائق صفات الإنسان تتضبب تحت سيطرة المشاعر مهما غرف صاحبه من العقل. ألم يكن خدشًا للغرور أن تسبق باسل في الاعتراف بحبها وتطلب منه الوصل، أم كما اعتبرتها ساعتها هي مبادرة تدل على القوة المتغلغلة فيها حد الغرور؟! أحقًّا سبقته أم يعتبر أنه تناول الثمرة بعد سقوطها من الشجرة بغير تسلق أو عناء؟ صعد الحب على عينَي باسل وتعثر في النزول على شفتيه. فشل في كبح تقدمه نحوها منذ رآها للمرة الأولى أمام البنك التي تعمل به. هي في الأصل من قبل العزف وبعده موظفة بالبنك، مسكته حرارة لم يهدها خافض لليالٍ، لم تُصبه أية سهام من قبل، وإن كان قد تمنى ذلك في هيلمان خرسه المضروب به الأمثال. باسل قليل الكلام، يخلع لسانه ويضعه في الدرج المخصص للساعات والنظارت، وأيامًا أخرى يربطه من المزمار إلى الحنك والأسنان ثم يخرج يواجه العالم ناسيًا الكلام. عندما تمكنت منه حمى ندى نجم ذهب إلى البنك مدفوعًا بطيف غريبة عنه لكن نداها أعجبته، عميل مهم ورجل

أعمال غني حضر بنفسه بدون سبب منطقي يتنافى مع كونه مشغولًا لشوشته. أين جيوشه الجرارة وموظفو الذين يسعون بين يديه؟ غالبًا ما يقلب كيان رجل ويعكس منطقه؛ امرأة. يومها خرج باسل المراهق الذي لم يعش مراهقته من قمقمه، فعل أشياء غريبة من تلك التي تعجب البنات وتُعتبر في قاموسهن سعيًا لمكسبهن ومشقة للظفر بهن. جلس على المقعد القريب من ماكينة قصاقيص الأوراق المرقمة يسحب رقمًا وراء رقم ليعطيه العملاء الداخلين لصالة البنك؛ ليضمن أن يبقى الرقم الأخير. بات بين ليلة وضحاها ينافس الرجل البسيط الموكل بماكينة الأرقام في لقمة عيشه. جلب هندام باسل نظرات متعجبة، لكن ينام على أكتاف الجالسين هموم ودهشات أعجب وأغرب تجعل أناقة عامل مفترض أمرًا بسيطًا وارد الحدوث ويجوز.

ورقة بيضاء 51

لعل باسل ذهب إلى الماضي يجلس في الفصل ساهمًا يفكر كيف يلفت نظر الجميلة التي تسبقه بثلاثة مقاعد. ينبش عن بطولة تخبرها بوجوده، أو عمل طائش يثير قلقها، أو فعلٍ كوميدي يجذب ضحكها. خطوة تُمكنه من خرق صومعته وكسر جبن المواجهة الذي يشله. كم تمنى أن ينهض ليشارك أقرانه في حمل صناديق البسكويت اليومية التي كانت توزعها المدرسة عليهم، ويعطي الجميلة بنفسه فوق نصيبها نصيبه لبذل الود ورمي عطا المحبة. في كل مرة كانت المخاوف تأكل رأسه حتى تمر لفة الصناديق، ستتعرقل وتسقط أمامها وتشويك النظرات والضحكات، ستتلعثم وينحاش لسانك عند الكلام، وهل فعلًا سأستطيع كسب قلبها؟ باسل ذو ذكاء رقمي

حاد، وعقل مفرغ للأفكار الجديدة اللامعة، أو كما سمعت من الواد زياد "أفكاره خارج الصندوق"، ينتجها في سكات بينما الآخرون من حوله يصخبون من غير الوصول لربع إنتاجه من الأفكار. والعجيب أن كل ذلك مسكوب في وعاء فارغ من الثقة. في تسعة أعشار الصمت وقاية والعُشر الأخير جناية إذ سكتنا على الظلم أو التعبير عن المشاعر. ذاق هو هذا وذاك، صمته وحسن هندامه وغناه أزاحت من أدمغة الناس انطباع الجبن عنه وروجت لرصانته وثقته الكبيرة. ولولا مدد هذه الأفكار التي تأتيه فتجلب له انبهار من يقابلهم لما شق طريق النجاح بهذه السرعة، فليبقَ صامتًا الدهر طالما ماكينة الأفكار تصنع إمبراطورية، له المخ ولمن حوله الثرثرة والعضلات، ولا أحد يعرف أنه يحترق فوق الأسياخ رغبةً في ثرثرة مثل تلك التي يخوضون فيها بطلاقة! كان كأنفاس الدخان التي تريد أن تتصاعد في مقطوعة من الكركرة بينما الشيشة مكتومة تمامًا وجمرها لا يلتهب، أو مثل الذي يرغب في القفز من فوق الشلال لإنقاذ حبيبته من الغرق بينما قدماه متحجرتان لا تقويان على الحركة بلا قيود أو سلاسل. الأدوار الرومانسية التي يأمل في لعبها حبيسة أدراج طبعه الذي لا يملك ميزانية إنتاجها. أمه تقول إن أباه كان رومانسيًا. فلربما وُلد بها وبترتها إقامته الجبرية مع زوج أمه بكل أسى، لم يستسغ أن يجد نفسه يتيمًا في أحضان رجل غريب بعد عامه العاشر. ولم تفلح حبكة القدر حين اختارت له زوج أمٍّ طيبًا ذا مروءة في انتشال الصدمة من روحه، طفل توسم في أمه الرهبنة فلما وجدها تتذوق مرق الحياة تقوقع وغاص في الخرس.

بنت نجم أنصح وأوضح من أنها تلاوع باسل بعدما رأت منه

التلعثم الخام والارتباك الأول والميل الحقيقي الذي قابله من ناحيتها ميلٌ؛ لولاه ما تجرأت على قيادة ربكته. وقتها ظنته تلعثمًا وارتباكًا لا جبنًا وتخاذلًا، لكن الثابت والواضح في كل وقت أن باسل مال إليها وأحبها بكل كيانه، لكن الحب وحده لا يكفي!

في غضون أيام صارا كتابين مفتوحين، تحكمت اللّهفة، وقبض الحب قبضته الدامية أمام الخرس المستفز الذي يطوقه رغم كل ما ألمّ به من حب، انسحبت ندى من لسانها واعترفت: "باسل أنا بحبك!"

بعدها انقطعت ندى عن ورشة العزف، قلق يحيى الذي حاول الاتصال بها لكنها لم ترد، ذهب وتسلل وبص وعس حتى جاء إلى كمال ذات ليلة مهمومًا مدحورًا يطارد خيط دخان، يخبره بزواج ندى المفاجئ ولكن كمال أخفى عليه معرفته المسبقة. بل إنه حضر الزفاف محزونًا معتصر القلب تحت إلحاح وأمر وزجر مني في محاولة بائسة لكسب ود أبيها قبل أن أنطحه بوساختي؛ وظل كمال يعاتبني لأسابيع على إصراري لحضوره وكأنه خان يحيى خيانه عظمى!

ورقة بيضاء 52

جحظت عينا كوكى تستقبلها منتبهة متعجبة كأنها تقول: "أخيرًا راجعة مبسوطة". قفزت مبتهجة تحضنها فردت ندى التحية بأحسنها إذ قبّلتها ومرت يدها فوق فروها الأبيض الناصع تهدهدها، تبذل صافي الدلع الذي وصل للقطة فتمايلت في سعادة. ثم أخذتها في مشوار اعتيادي ناحية ركنة الطعام ففضت طعامها وتركتها تأكل

في تلذذ. حضرتها نشوة حرضتها على أحب الطقوس عليها، الرقص، منذ هروبها وقبله بفترة كبيرة لم ترقص، صرحت بذلك خلسة تأكل الكلام ذات تجمع في غرفة الانسجام. وقفت أمام الدولاب الذي كان يومًا دولاب يحيى حتى ترك الشقة وتزوج. وفي يوم قديم مضى كان قد ألصق عليه من الداخل خاطرة تحوم حول الشعر متغزلًا في حبيبته الهاجرة، ثم ذيّل آخرها باسمها "ندى نجم". وها هي اليوم تفتح الدولاب نفسه بيدها لتختار ما ترتديه في رقصتها. ما لم يأت على بالك يأتي به القدر.

الشجن والنشوة توأمان خرجا من رحم الحياة. ذلك ما أكدته رقصة ندى. أن يكون الرقص مرثاةً منغمة تنزع الدمعات من الأحداق، وأن يميل الخصر تضامنًا مع القلب الكسير، وتدب لقدم الملكوك ذات الخلخال الذهبي فوق الحظ العسير. في جلباب أسود لامع يكنز قوامها الأربع لا هي بالفارعة ولا بالقصيرة؛ حلت ندى كالشهاب، يرفض شعرها الكبت فرمح إلى آخر ما استطاع من الطول؛ أوقفه كمين خصرها فاستسلم. وانسكب الغرور فوق الممر الناري الشهي، فتألق وطل من مخبئه يشعل نهدين مكورين بدسم الأنوثة الآسر، فاشرئبا ناهضين بالفتوة منفتحين على السعادة. بسحبة من إصبعها المطلي ظفره بالنبيتي الأخاذ فوق الهاتف الذكي؛ دارت أنغام شجية لأغنية قديمة تسمى "ألف ليلة وليلة"، دقت النغمات إيذانًا بخروج الخصر من ثباته وشباته، سرعته في الإستجابة مدهشة، يطيع ضرب النغمة الصاخبة فيتحرك يمينًا بشدة ويثبت لحظة، ثم يردها إلى اليسار في قوة ويثبت لحظة أخرى. قوى خصرها متساوية في الفعل ورد الفعل. ندى ترقص بكيانها الداخلي قبل

جسدها الخارجي.

قرأت تزامنًا مع خرطة الأنوثة فيها أن الرقص هو التأويل لمقاصد النغم، فكانت البرهان على ذلك. ترققت الجمل الموسيقية فلانت معها وتمايل جميعها في تناسق تام كوحدة واحدة من الحلا، فلا الخصر يسبق النهد ولا يتشاغب النهد على الخصر. ثم في تمكن راقصة أغواها طريق الوظيفة استشعرت في النغمة التغجر فقبضت على شعرها ترفعه فتطوحه، بينما أخرجت فخذها من الجلباب تلفها في ميوعة فوقفت على أشبار قدمها في تماهٍ شهي مع تماثيل قديمة كلها مغرورة مثلها. نزلت الموسيقى إلى التقسيم فتقصعت ببطنها هبوطًا حتى ثبتت جسدها بالكامل، إلا من واحتها الخلفية الرشيقة الممشوقة المرفوعة الأنثوية التي تحسدها الأخريات عليها، يُقال إن بين النساء لا توجد غبطة، هناك الحسد يجد مرتعه ومبيته. تنتظر ندى هذه اللحظة في كل رقصة لها ولغيرها، فبينما انحنت بنصفها العلوي، كانت تهز ردفها في تقسيم وترعيش ورواقة وهداوة وجموح وفن وغرور وإغواء وفرحة ونشوة وتعالٍ وانتصار. وبعدها مس اللحن الشجن فبعثره على الصبية التي ترقص كأنها تنعي وصلة وحدتها؛ فطفرت من عينها دمعات أسالت الكحل الحار الذي لو سقط على الصوان لأذابه. عاشت ندى في لحظتها الأنثوية شديدة الخصوصية تلك تهزم كل من غربها وأوجعها وخذلها ودفعها لهذا الهرب وتلك الوحدة، بل على الحي كله، بل الأنكى أنها تقسو على من أحبها برفضها وصاله، وتقسو على نفسها إذ تحرم من أحبته من الوصل؛ حتى باتت بلا وصل تتدلل بردفها للخلاء وتصرخ بنهدها في وجه الهواء وترقص في الفضاء الفارغ.

هكذا ظنت!

منذ وقت طويل لم ترقص ندى. تخذل جسدها الحلو وتعب، ترنحت فوق الكنبة في نصف نومة تلامس قدمها الأرض بينما وهي مُعوجّة الوسط تسند رأسها على حافته الخشبية؛ حين رن هاتفها بإشعار الرسائل فظنت أنها سارة ترسل لها صورة مضحكة أو تخبرها كعادتها بشيء بسيط قد ضخمته، أو ربما تجدد عتابها على عدم اصطحابها في سهرتها. نهضت تنوي تحويله على الصامت قبل أن تلمح الذعر مجسدًا في رسالة مجهولة المصدر:

- تجنّني.. كمّلي رقص!

***

صوت أجراس كنائس الحي كلها كانت أخفض من دقات رجفة قلب ندى في هذه اللحظة. انتفضت حيرانة ماذا تفعل قبل ماذا؟ تخرج من تلك الشقة المكشوفة أم تبحث عن الكاميرات المعلقة أو المثبتة أو الموضوعة، وربما كانت متحركة خفية لا تراها. بسليقة أنثى لا يزال نهدها مكشوفًا معروضًا على اللّهو الخفي لم تُعطِ له فرصة كشف المزيد بتبديل ما تلبسه؛ جذبت عباءة سمراء قلما ارتدتها لكنها أسهل وأقرب وأفضل الحلول، ارتدتها فوق جلباب الرقص ثم هرولت خارج الشقة تستنجد بيحيى الساكن بالأسفل!

سارة فرج

ورقة بيضاء 53

- إنتى اللى حمارة.. ماسافرتيش ليه؟! إيه اللى مخليكى فى الحى لحد دلوقتي؟!

قالتها ميرال في عتاب محب خائف على مصير حبيبه. بينما كانت سارة تغلق حقيبتها بعدما دست خلسة في جنباتها علبة مستطيلة، تحوي على عدة سجائر من الحشيش التي تم لَكُّها بعناية وتنمُّق أنثويين. حتى فى أحلك الأوقات وأكثرها ضغطًا على الأعصاب لا تتخلى سارة فرج عن سخريتها اللاذعة. الجو مكهرب واللئام يُطاردونها والهرب يسبقها على الأبواب، وهي تجهز وتطمئن على قوت دماغها من المِزاج. لولا هذا الطبع المستبيع الساخر في صد النكبات لباشت وانصهرت وراحت منذ وقت طويل. شدت وثاق الحقيبة ثم أنزلتها على الأرض ونظرت إلى ميرال تغالب غضبة وتغلوش على أسى ينال منها:

- فكرك هتفرق؟! اللي بره زي اللي هنا، بيكونوا من جنسية الحي أصلًا وفي الاحتكام لهم بنوصل لنفس النتيجة، ما أنا كنت بره وابن الوسخة رفع عليا هناك بدل القضية اتنين!

- طب خلي بالك من نفسك.. هتروحي فين؟!

- لسه ماعرفش!

لم تكذب سارة. هي لا تعرف أين ستذهب بعدما تترك مخبئها الحالي. تحولت عمارة مَلك الأنتيكات والتحف بديع زهران على يد

ابنه إلى مخبأ للمُطاردين؛ يحيى المتستر على المجاريح وهو مثلهم مجروح، ليس ببعيد عن هَمّ المطاردة. بل السهام مزقت جسده ولم يتبقّ منه إلا بعض الأشلاء النابضة. هو وحده من يعرف إلى أين ستذهب سارة، قراره وحده وتحت رعايته سيوصلها إلى المأمن. أخفى عليها المكان حتى يغادرا، أو بالأحرى خبأه على ميرال بعدما لامس فيها التبدل. لم يصل الأمر للشك لكن المسافة بينهما تتباعد لدرجة عدم التفهم، والاختلاف الجذري الذي مس النظرة للأشياء والرؤى التي تتغير لديها في وتيرة متسارعة متصارعة، حتى بدا ينظر إليها في نقاشات عديدة كأنه يعرفها لتوه. لمس تطاول بنيان الشيخ عمرو في رأسها يؤسسها، ويحكم سيطرته. ينام ويتركها بالكاد في مرحلة الحفر تسمع إحدى حلقات شيخها اللميع اللامع المفتول العصري الساكن في القرون الوسطى؛ ثم يستيقظ ليجدها قد وصلت للطابق الثاني والثالث. لم يكن هو السبب الوحيد في تغير حالها مع يحيى أو تبدل آرائها في الحياة، لكن كانت عدة لبنات زُصت ضمن جدار أقامته الأيام بينهما حتى اشتد وتصلب، وبات تنافر دماغهما يزداد كل يوم أكثر من الذي قبله.

ورقة بيضاء 54

كانت الرغبة في أخذ الحيطة والحذر تملؤه، بينما الرغبة الأولى هي تلافي أي جدال وتأنيب ومزايدة وتجويد وعتاب سيصدر من ميرال عاشقة العتاب وسيدته. ميرال سلطانة المعاتبين كما سماها كمال عزازي بعد شكاوى يحيى المريرة وفضفضته الحميمة له. مع الوقت حمد لنفسه أنه لم يصرح أين خبأ ندى من قبل، في ظل تبدل ميرال الواضح وميل يحيى لندى الأوضح، من اليسير طفو الانتقام

على سطح امرأة تيقنت من زيغ قلب شريكها عنها. وبرغم قصر الوقت الذي جمعهما، كانت سارة أقرب شلة العازفين إلى ميرال؛ لذلك ظلت نغزة حب تشك قلب ميرال وتعوق وتمنع وتحجز تغيرها الكامل في التعامل معها. ولكن لم يفت وقتٌ طويلٌ حتى اعتبرتها ثغرة ونقيصة إيمانية يجب سدها وصدها ولو بجبر القلب ودهس نبتته النابضة. ولا أدري أي إيمان هذا الذي يقلب الودادة إلى غتاتة؟!

لا تتعجب كوني أتحدث عن الإيمان، أينعم أنا مزورٌ ومحرضٌ وعاصٍ ألتمس أبواب التوبة، ولكن لست كافرًا، ولا أملك رفاهية الوقت لأقع في حيرة المنزلة بين المنزلتين. وأظن أنني لا زلت مُدرجًا في حظيرة الإيمان.

لاحظت سارة تغيُّر ميرال حتى إن العيد بات يمر عليها بدون تهنئة ميرال، وقتها تأكدت أن رأسها لم يعُد ملكها وانقضى الأمر. لكنها تغافلت عن التعليق مكتفية بإيماءات الاستغراب، وغلق كل محاولات وإشارات وتلميحات النصح والتبكيت الآتيه من بعيد لبعيد؛ بسخرية لسانها النابي، الذي كان مصدرًا لخض ميرال حتى تعودت عليه بل شاركتها في إباحيته في قليل الأحيان. حتى ذهب حلو السمر ودفء الصحبة بينهما إلى المغيب، إلى أن عاجلتها ميرال بالسؤال عن امتناعها عن الهرب سفرًا، ذلك السؤال الذي خرج من مشتل الرقة في قلبها رغم أنف محجر القسوة في عقلها. اختزنت سارة السعادة تتمنى أن يكون ذلك السؤال هو بادرة العودة لا صحوة الموت!

وقبل أن تغلق الباب وترحل استوقفتها ميرال ثانيةً تسألها في عجالة، كان أقرب للاقتراح منه للسؤال:

- طب ما تروحي تقعدي في أي دير؟!

قابلت العرض بابتسامة عريضة مبطنة بالسخرية ثم قالت:

- هَشوف!

ماذا حدث لكِ يا ميرال وأنتِ أستاذة الجامعة المعروفة بيننا بالمنطق وإعمال العقل النابه، كنتِ مثالًا في تذوق الكلام قبل التفوه به، فمتى أصابتك النعكشة وصرتِ سداح مداح؟ كيف يقفز في رأسك أن أذهب إلى الدير أو الكنيسة لأحتمى وأختبئ؟ أأذهب بقدمي لأتذكر خيبتي في استرداد حريتي؟! الدرس الذي تعلمته من المأساة أن الصلات البشرية بين البشر واللّـه قادرة على قطع الصلة بين البشر واللّـه!

لا يُذكر أن تفوه يحيى بالمكان الجديد الذي تختبئ فيه ندى. تملك سارة من الرصانة الكفاية التي تجعلها تسكت عما تعرف، إذا افترضنا أنها تعرف أصلًا. اخترقا الليل البهيم، يقود يحيى سيارة أبيه الكاديلاك القديمة وسيجارته البيضاء الطويلة لا تفارقه، وقد شملهما صمت معبق بالكلام فكسرته سارة بالكلام:

- ميرال بتحبك!

رد في لهجة تقريرية باهتة:

- أيوة.

- واضح إنك مش حابب تتكلم.. طيب احنا رايحين فين؟!

- يعني مش عارفة؟!

- وهعرف منين؟!

- بلاش تصيعي عليّا واحترمي شعري الأبيض اللي ابيض من الصياعة!

- إنت مفيش أطيب منك.. هو لو كنت صايع كانت ندى لوعتك بالشكل ده و.....

قاطعها مغاضبًا حازمًا حاسمًا قاضمًا كلامها في مهده:

- سارة!

ظهر في مرمى الأفق المسرح المهجور فبان مقصد يحيى بينما تغالق على سارة فقالت:

- إيه الرعب ده احنا فين!

لحظتها، صدّق فعلًا أنها لا تعرف شيئًا، فليس من طبعها طول المراوغة. واستحسن في ندى ترشيد الثرثرة، فمِن عادة ندى إذا ارتبكت وزاد الضغط عليها ثرثرت لتطمئن، كأنها تستحضر الونس والطمأنينة بالكلام. كانت سارة للمرة الأولى تركز في الطريق إلى المسرح، قبلها كانوا يذهبون إليه في صحبة فتنشغل بجزّ شكلهم ومد بساط المرح عن متابعة الطريق، وبرغم ما مرت به كانت تصر على المرح والبهجة والتعالي على الحزن كأنها منفوحة بقوة خفية خارقة، حتى إنك تتحير أهي قديسة ضمنت مقعدها من الجنة فعاشت، أم عاهرة رأت تقلبها في النار فعاشت. تمضي في الحياة بدون أن تحتار، فالحيرة تُفقد الإنسان العيش.

باستثناء يحيى المغرم بالتاريخ، وابني زياد الصحفي الشاطر الحشري القادر على حفر البئر بإبرة؛ لم يحرض الفضول أي فرد من الشلة على البحث والتنقيب في حشايا تاريخ المسرح الكبير المهجور.

بالغت سارة في ادعاء المرح وبذله، حد الشك في أنها تُلهي العيون عن ملاحظة رشقة الخنجر التي أصابتها فدارت النّزف الساخن. بادرت بالنقب الحنون من باب الإهتمام، قبل أن ينقبوا جدارها الذي تهدم فوق أنقاضها في الأيام الفائتة. لم تفلح خطتها مع يحيى، وإن فلحت مع ميرال؛ ميرال لم تعد مقياسًا لاختبار الوجدان، أثارت يحيى بدخولها كردون جرحه الغائر، لا تزال آثار حديثها عن تلويعة ندى له تلوعه، قضمت وجهه، قلصته، وتنافس الشجن والحقن على عينيه، يقود السيارة بجوارها مكدود الحواس سينفجر، بيدَ أن ما خافت منه سارة وصرفت الأنظار عنه دار ولف ثم سقط في عِبها. خرج يحيى من صمته الطويل مخنوق النبرة يسألها في صرامة متألمة:

- كنتِ فين التلات أيام اللي فاتوا.. ده وقت تختفي فيه؟!

ورقة بيضاء 56

انسجمت سارة بروح المغامرة خصوصًا بعدما حمل يحيى قنديلًا يقودها في ظلام السرداب، وفي غمرة الشدهة والدهشة ذهب القلقُ من مطاردة هاني وتهييج الكنيسة عليها كونها الزوجة الهاربة.. وقف يحيى أمام إحدى الغرف فتبعته سارة بالانتظار، ثم طَرقَ على الباب طرقتين، بدا أنهما متفقٌ عليهما ففُتِح الباب عن وجه ندى الشاحب

الخالي من أية ألوان أنثوية، حتى الكحل غاب في مخبئها. كانت قد بدّلت عباءتها وجلباب رقصها الشهيّ بعد ثلاثِ ليالٍ من ارتدائهما الجبري بملابس أخرى جلبها يحيى على ذوقه، كأنه انتهز الفرصة ليفعل ما تمنّى فعله كحبيب. لم يستطع إحضار ملابسها من الشقة حتى بعدما حرّر محضرًا باقتحام شقته وتركيب كاميرات للمراقبة. تم التحقُّق من البلاغ والتحفُّظ بالفعل على الكاميرات الصغيرة المعلقة في كل أركان الشقة بحرفية شديدة. ويُذكر أن المحضر قد قُيّد ضد مجهول في سرعة مريبة مذهلة!

انغرزت سارة في أحضان ندى تردد في ابتهاج وصخب يا ولاد الكاااااااالب، وسرعان ما أشار إليها يحيى بخفض صوتها حتى لا يبوح الصدى المُجلْجِل في خلاء المسرح بوجودهم. هَمّ بالانصراف فاستوقفته سارة تطلب منه ألّا يخبر أحمد بمكانها؛ حتى لا يرتكب حركة طيش من حركاته تُجهِض كل تلك الحِيطَة والحَذَر. ابتسم يحيى وقفلَ خارجًا قبل أن تسأله ندى في نبرةِ رقّةٍ مغموسةٍ بالوَجَل:

- إحنا هنخرج من هنا إمتى؟

- أول ما نرتب للسفر.. لازم نسافر.. مش هينفع نكمّل هنا!

- سفر!!

ورقة بيضاء 57

خرجت من فم ندى كقنبلةِ يدٍ تشظّرت داخلها فأحرقتها. لم تفكر لحظتها إلا في ابنها. أهوَنُ عليها الموت هنا في الحي عن السفر

بعيدًا عنه، حتى وإن قُدّر ألّا تراه ولا تعيش معه لكن هنا يظل اللقاء ممكنًا. هبّت سارة تخترق الحزن الصاعد دخانه من قلب ندى؛ تمارس موهبتها في نَثرِ الأمل في الفضاء حتى وإن انقطع حبلُه من وريدها، قليل الحكمة عديم البصيرة ذلك القائل بأن فاقد الشيء لا يعطيه، بل هو يعطيه كالفيضان الجارف!

تخطّى يحيى بابين بعد باب غرفة الهاربتين ثم وقف أمام الباب الثالث ونقره ثلاث نقرات، فانفتح في اللحظة التي أشعل فيها سيجارته الطويلة كاملة البياض، يعلن عن وجهَي أحمد بس وزياد الذي قد سبق سارة إلى المخبأ قبل عدة أيام، احتضنه أحمد ثم جذب السيجارة من فيهِ في تلهُف على التبغ. اطمأنّ عليهما وإن كان ينقصهما أي شيء ثم هَمّ بالانصراف، وكأنهم اتفقوا على نزف الأشواق في آخر الزيارة حين يكون يحيى على عتبات الأبواب. سأله أحمد عن سارة فأمّن زياد على السؤال، إن كانت في أمان أم حدث شيءٌ يخفيه عليه، ابتسم يحيى الابتسامة نفسها التي بدرها فوق ثغره منذ قليل عند الباب الأول وطمأنه أنها بخير. لا يشعر بحسرة العاشق إلا العاشق. ولأن الصبّ تفضحه عيونُه والعشق تملؤه الثقوب، أخفى يحيى عليهم أن جميعهم نزلاء زنازين المسرح المهجور؛ وخصوصًا أحمد الذي لا ضمانة لطيش أفعاله البتة. أما سارة فلم تنزف الشوق ناحية أحمد، هو المكلوم الموهوم بينما هي فقط خائفة من حُمقه ونَزَقه.. غريبٌ حالُ رجال هذه الشُلّة، كلهم مكلومين موهومين فلم ينل أحد منهم قلب حبيبته، لكنهم صامدون على أذى القلب واستنزافه ونزفه.

هناك في غرفة الحريم أخرجتها ندى من رهبة ليلتها الأولى في

الحبس:

- خفي على الواد شوية.. فيها إيه لو عرف مكانك واطمن!

- شوف مين بيتكلم.. ده انتي مطلعة ميتين الجدع.. واللّـه خسارة فيكي!

- أنا ماقدرش أفكر في رجل متجوز.. وكمان ميرال بتحبه.

- بطلي يا ندى تتعاملي مع كل اللي حواليكي إنهم أغبياء، إنتي لو بتحبيه كنتي هتاخديه حتى لو في قفص الأسود.. الفكرة إنك لسه بتحبي باسل لكن بتكابري!

لعبت سارة في اللهب وحركت أوتار الألحان المتشنجة المنسدلة من سلم قلب ندى اللاموسيقى، فقالت بنصف غضبة محبوسة:

- أنا همي دلوقتي ابني. وبعدين سيبك مني وقوليلي إيه اللي حصل جابك هنا؟!

- لساني اللي عايز قطعه وقلم زياد اللي عايز كسره!

- ياما قلت له الصحافة هتجيب أجله.. بس ايه القصة أصلا؟!

ورقة بيضاء 58

كان فضول ندى لمعرفة قصة سارة كاملة أشبه بمن استيقظ بعدما انتهى الزلزال وأصر على الشعور بالهزة. لعلها في ذلك المحبس تشاهد توابعه. لوهلة ظنت سارة أنها تريد التفلت من عقارب الساعة بالثرثرة لكن بدا بين عينيها صدق الطلب.

ومن مجلبات الندم الطويل الذي يصاحب صاحبه حتى الموت؛

تخطى عمدًا الكلام المحجوز الواقف على عتبات العيون في لحظات العمر الحاسمة حين يتعذر جريانه على الألسنة. تمامًا كما تحدثت العيون بالاستغراب والاستنكار يوم خطبة سارة، شيء ما وحي بالغصة يقترب من خيبة الأمل لف أغلب الحضور، كأن حاجزًا ضد الرصاص يقف بين العروسين المتعانقين ولا يراه إلا العيون المستغربة. وإن كانت ساعتها محض ظنون ليس إلا. ولكن غيبًا خفيًا كالروح طفا على الحضور يقول إن البونَ بينهما شاسعٌ. الفرق لم يكن ماديًا فهاني ميسور الحال بينما تبدت عليه الدعة المعنوية وندح تقزمه بجوار سارة، حتى بان كالمستكثر على نفسه نعمتها، وغُلف بدناءة لم يستطع إخفاءها على المعازيم، فلاحظوا تتبع عينيه للحسناوات في شراهة كريهة. تغاضت سارة عن كل ذلك بتدفقات الحب الأولى الغزيرة، جمعت ما حملته العيون ثم سكبته في بئر العناد ومضت نحو مصيرها تستقبله بالأسى والأذى. لكيلا نحيد عن الحقيقة ربما كان هاني طوق النجاة الوحيد المتوافر الذي تشبثت بضلعه، فنَجدها بعدما خذلها الأقربون والأبعدون في أزمة هتكها وراء الجدار. في لحظة الغرق لا يهم شكل الطوق بقدر قدرته على الإنقاذ والنجدة. أغرقها هاني ثانية بعدما أنقذها!

ورقة بيضاء 59

سافرت سارة إلى حي الأغراب تغوص في حياتها الجديدة، تنسى ماضي الحركة بمرارته وقساوته لكنها تحفظ في قلبها وأصابعها دروس الطبلة التي تعلمتها على يد يحيى وفي ورشته.. قبل مرور عام على وفاة بديع كان يحيى قد افتتح ورشة الموسيقى تلك، كل الأشياء التي كان بديع معترضًا عليها في حياته فعلها يحيى

بعد موته إلّا الزواج من ندى، جاءته الطلقة من ندى نفسها! أغلقت سارة صفحة الماضي بل بدّلت الكراس بأكمله وقررت التجاوز بالدّأب والسعي إلى المكانة. وقد تكون البذرة في الوالد فيحملها الولد لتصبح شجرة يانعة يافعة مثمرة. كان فرج صبور يجيد حياكة القماش ورسم التصميمات على نطاق مقبول. إلا أن سارة ورثت الموهبة بدسامة مبهرة، فبانت عليها في صِغَرها والتفتت إليها الأنظار، فشجّعها الأقربون على شق هذا الطريق، وسرعان ما زاولته حتى تعطل قليلًا بركود السوق، وبالسفر واتتها الفرصة لصقل موهبتها، فالتحقت بأكبر مراكز التصميم وأظهرت براعة أهّلتها لقفزات سريعة فاقت بها أقرانها، حتى إنها شاركت في وقت قصير بتصميماتها في المهرجانات السينمائية. وحين التمع نجمها هاجمتها العتمة إذ بان الوجه القبيح لهاني وأشعلت الغيرةُ صدرَه، فأهملها وتنصّل من مسئولياته تجاه بيته وترك عمله كمحاسب واستقبل التّعَرئد بصدر مفتوح. وانقلبت ساعاته بين الليل والنهار، وقلّما تجده منتبهًا فملكت الخمر زمام أمره وملأ السُكْر فراغ روحه، وساءت خُلُقه ولعلها ظهرت حقيقتها الآثمة. وساح في الأوكار ينهش الأعراض ليعيد سيرة فحولته الميتة. سرت ضآلته بجوارها من نفسه حتى تفخّلت جسديًا فما استطاع النوال من العشق، كاد يُجنُّ وتمنى لو شاهدته وهو يصعد ويهبط فوق العاهرات كالثور حتى تقتنع أنه ليس فأرًا جبانًا.

دون جدوى حاولت سارة إصلاح سوءات أفعاله التي تبدّت، فنهر الخمر لم يغد كافيًا فزاحمتها البودرة على نهبه وهلكه، وتبشّع الشر بداخله وتقيّأ غلّه بشكل همجي. صفعها وجذبها وركلها وشَجّ رأسها

ومَزّق روحها أسوأ تمزيق. بحسابات البنية الجسدية سارة قادرة على إلصاقه بعاهة تستديم ببقية عمره البائس. لكن أهوال المفآجات تشلُّ الجسد وتُسكت العقل عن إعطاء الإشارات، وبمجرد أن تصل الأمور إلى العاديات فيستعيد نشاطه ويتهيّأ لرد الصاع صاعين؛ مثلما حدث في إحدى الليلات الغبرات حين عاد هاني خاليًا إلا من زاد الخمر، تتدلّى الأباحة من شفتيه يحاول الوقوع على سارة غصبًا واغتصابًا، بينما هو لا يقوى على صَلْب طوله، فصفعته بعزم ما تملكه من قرف وحزن وألم وقهر وكبت وحسرة ووجع، فأسمعت صفارة أذنه النائمة، بل كاد يفقد سمعه، ولا يزال إلى الآن يدور على الأطباء ليعيدها سيرتها الأولى، يعيش بأذن واحدة وقلب مُسودّ بكامله ناحية سارة، بل يعيش فقط لغاية النيل منها وإيذائها وتلوين أيامها بأسود الحزن.

ورقة بيضاء 60

راحت أيام السعي إلى إصلاحه واستقر العداء بينهما، فما كان من سارة إلا المضيّ في طريق الخلاص الصعب، دخلت بقدميها وكل كيانها إلى الساحة التي لا يدخلها من أهل الديانة إلا الشجيعات اللواتي ضاقت بهن الحياة وأحببن الحرية وأردن فتح صفحة جديدة، أو على الأقل غلق الصفحة القديمة! هربت سارة من الجحيم عائدةً إلى الحي المبارك تُمنّي نفسها بشربةٍ تبلُّ الريق؛ خصوصًا بعدما تأكدت من أن وجودها في حي الأغراب هذا لن يُقدم ولا يؤخر في مطلب الخلاص. بعد مشاورات وتَقصٍّ وذهاب ومجيء عرفت أن الكنيسة هناك ينظمها قانون الحي المحلي، والقنصلية التابعة لحيّنا هناك لا تقوم بالمساعدة في مثل هذه الأمور، بل تصدق فقط

على أحكام الطلاق الصادرة من محاكم الحي بعدما يستصدر أحد الزوجين حكمًا قضائيًا بذلك!

إذن المعركة هنا وليست هناك!

قطعًا لم تكن المرة الأولى التي تدلف فيها إلى كنيسة الحي الكبرى لكنها الأولى في غير أيام الآحاد، أو تجيء خصيصًا من أجل الصلاة أو إيقاد شمعة أملًا في تيسير العسير أو قُبيل مهرجان مهم تأمل في أن تلقَى تصميماتها القبول. هذه المرة تدخل سارة يوم الثلاثاء. والثلاثاء في حيِّنا سيئ السمعة ذو سِرٍّ طِلّسمي، لا يعرف كُنهه أحد. اختصار شواهده أنه مزدحم يدلَهِمُّ الناس فيه وينشغلون أيّما انشغال وتتركبس فيه المهام، كأن يومَي الأحد والاثنين كانا بثًّا تجريبيًّا أو إحماءة لمباراة الثلاثاء الحامية. والغريب أن تلك الشكوى أو الانطباع تجده مفرودًا كالبساط في عقول الجميع في الحي دون اتفاق، بالشعور وربما بالتجربة، من التلاميذ في المدارس وصولًا إلى الوزراء ورؤساء أكبر الكيانات والشركات في الحي. اخترقت سارة الممر النابض بالسَّكِينة، وسط الدِّكَك الخشبية العتيقة التي شربت من مهابة المكان؛ حتى إنك تظن أنها منسولة من جلسات الحواريِّين أمام السيد المسيح. وصلت عند أول صف للدكك القريب من الهيكل، يخشع الأب مرقس في صلوات ترفّح عن قلبه الثَّقَل الذي تخلفه الحكايات المآساوية التي يسمعها من روّاد الكنيسة الذين أهلكهم تسلل الشيطان، يأملون في إيجاد المشورة والنجاة والحل على يديه، يأتون ليسمعوا صوت الرّبّ بين أحباله الصوتية وآياته المروية.

تهلّل وجهه لرؤية سارة، طالما شعر بأنها تتغلف بالمحبة والرقة والبهجة. قبّلت يده بينما يسألها عن العودة السريعة؛ أهي زيارة طارئة أم عودة نهائية؟! لم يمرّ العام على مراسم زفافها التي تمت على يديه أمام الهيكل نفسه. تابع بقلق الذبول الذي سرح في وجنتيها والعتمة التي تستحل عينيها. للحظاتٍ فرض الصمت الملازم لوضع الصليب فوق رأسها وإقامة صلاة سريعة ودعوات، قبل أن يجلسا على إحدى الدكك وسط الهدوء المنتشر في الأرجاء حولهما. لمحها وقد شردت في الرسمة الجديدة فوق الجدران التي جُدّدت لتوّها، كانت للعذراء مريم تحمل وليدها المبارك. بادرها الأب ليُخرجها من الشرود والسّرَحان، الذي مصادفةً كان قد خصص له وعظة الأحد الماضي، وكيفية استغلال الفراغ كيلا يتسلل الشيطان خلاله بالسرحان والشرود.

قال الأب يخترق الشرود:

- حيّنا يا سارة ملآن بالفنانين العظام الذين أفاضوا على أحياء الدنيا كلها بالنور والجمال والفنون، تمامًا مثل الفنان الذي رسم هذه الرسمة التي سحبت لُبّك وسبحتِ معها.. لماذا كل هذا الهم المنثور كالتراب على وجهك؟!

- عايزة أطلّق يا أبونا!

أول لقاء جمعهما بعد هروبها كان في حضرة الأب مرقس، رجع هاني ليُعيدها غصبًا فأرسل الأب يدعوه لاجتماع؛ آملًا أن ينجح في إصلاح ما بينهما. سمع شكواه، اتّهم سارة بكل أنواع الإهمال؛

فكظمت غيظها احترامًا لمقول الأب بينهما، فقط بين الدقيقة والأخرى تقول: "ما حصلش"، بدلًا من "كذّاب" الممتلئ بها فمها فيُسكتها الأب بينما في سرها تفوح بالسّبّ واللّعن، ولولا قداسة المكان لخلعت حذاءها وأنزلته فوق رأسه. لم تأتِ شكوى سارة بجديد عما قصته في لقاءاتها المنفردة بينها وبين الأب، الكلام نفسه عن السُكْر والعربدة والبطش والسّبّ والإهانة وعدم قدرته على تلبية المسئوليات بعدما ترك العمل وتفرغ للملاهي، فضلًا عن خياناته شبه اليومية بلا أي خجل أو حياء، حتى عندما يحاول التخفّي تأتي ساعة توهان الخمر فيتعرى تمامًا من أي سِرّ!

كادت سارة أن تطرشق من جنباتها طوال الجلسة، كتمت غضبها أكثر مما تعرفه عن نفسها، وسرعان ما انفردت بالأب بعدما انتهت الجلسة وغادر هاني، الذي كان مُصرًا على أخذ زوجته معه لولا شفاعة مرقس لها. تحررت قليلًا من لباقة الكلام بنبرة منزعجة غَضُوب وإن لم تتخلّ عن آداب الحوار:

- يا أبونا توبة إيه اللي بتكلمه فيها وبتدعي ربنا يعطيهاله. إحنا جينا نناقش توبته؟!

- الرب لو أعطاه التوبة الحال كله هينصلح.. كل اللي حصل بينكم سببه البُعد عن ربنا عشان كده طلبت منه يجي الخدمة في الكنيسة فترة.

- يا أبونا أنا ما بقاش عندي تقبّل أصلًا للعيشة معاه يتوب بقى ولا عنّه ما تاب!

- إنتي مواظبة على المطانيات وعدد الصلوات والسجدات اللي

قولتلك عليها؟!

- أيوة يا أبونا مواظبة بس على فكرة أنا بعمل كده عشان روحي أنا مش عشان أرجع لهاني!

- كترة الصلوات فيها الصلاح.. اصبري وابعدي الملل والشيطان عن قلبك!

- يا أبونا ما أنا حكيتلك عذبني ازاي ووزّيتك بالدليل الوساخات اللي بيعملها.. أنا عايزة أطلّق!

- يا بنتي أنا عارف إنك مظلومة وإن الحق معاكي بس لا يجوز إلا أن أسعى في الإصلاح.. أنا هنا صانع سلام والبيت بعد الزواج بيصبح كنيسة، يبقى ازاي أهدم كنيسة.. ولا تنسي أولًا وأخيرًا أن ما يجمعه اللّـه لا يفرقه إنسان!

ورقة بيضاء 62

نزلت سارة درجات السلالم النائمة العريضة الضيقة المتتالية أمام بوابة المحكمة حتى توهمت أن لا نهاية لها، تطير كالعصفور المطلوق بالبهجة. كانت على طولها الفارع وقوامها الأنثوي الشهيّ أخفّ وأرهَف وأزوَق، رغم رغبتها الفلحّة للبكاء بل والصراخ كأنها الوليدة تستقبل الحياة لتوّها محمولةً على كفّي الطلاق الذي نالته. لكن حريتها لا تزال مقيدة لا تستطيع الوقوف والمشي والقفز والوثب وقلب الصفحة تمامًا. استجلبت حكمًا قضائيًا ينصرها على الأوراق الرسمية، بينما هزيمتها النكراء مستمرة أمام ألسنة الرب البشرية. توسّمت في البشارة أنها قطعت نصف المسافة إلى الراحة، وشعرت

في لحظته وساعته وتاريخه أن الدرجة الأخيرة لذلك السلم الطويل هي عتبة الخلاص.

كثيرٌ من النسوة في هذا الحي المبارك يمشين نفس الطريق الذي مشته، يلجأن مثلها للقضاء فينتزعن الطلاق ثم يحاربن همسًا وسرًّا وجهرًا وتوسُّلًا؛ من أجل انتزاعِ صَكّ العفّة وبراءة الشرف قبل الدلوف إلى الحياة الجديدة، أو حتى الإبقاء على الحياة القديمة. يُدنن حربهن في بسالة وطول بال وصبر قد يمشُ العمر، فتجد المحظوظة منهن قد نالت مرادها بعدما فرّ العمر وبانت الحياة الجديدة كماء السراب. بينما سارة خافت على عمرها مخافةَ الفريسة من الأسد، فخرقت السكون وتمردت وصارحت نفسها بأن الحرب الباردة لا تناسب قُوَاها القلبية ولا طبعها الحامي. سكبت سارة قنّينة عطر الإيمان في قلبها، مُشدّدةً على نفسها بألّا تسمح لكائن ما كان بالتشكيك فيه أو مَسّه. ثم اندفعت تروّج لمعاناتها في الفضاء، للبشر والحجر لعلها تحصل على نصف حريتها المتبقية دون مداراة أو مُوارَبة أو مساومة.

ورقة بيضاء 63

لم تكتفِ سارة كغيرها بالجلوس بل بالرمْي، وهو الأصدق، أمام الأبواب المقدسة تتذلّل للفرج، لكنها صاحت بما تراه حقًّا لها. بكته وقالته، بل صنعت ما هو أكثر من القول في الغرف المغلقة، سايَرَت الجديد الجاري في رفع المسائل، وظهرت في مقطع مباشر عبر هاتفها لتحكي قصتها ومأساتها والتعسُّف الذي تواجهه، ثم ختمت قائلة:

- "يا ربي يا رحيم أبلغوني وأبلغونا أن مَنْ تجمعه لا يفرّقه الناس، إذن لماذا الناس يتعادون ويتحاربون، ولماذا خان يهوذا المسيح، أليس الرّبُّ من جمعهما، ولماذا حصروا هذا الجمع في خانة الزوجين دون غيرهما؟! وماذا عن كل هذا الفراق الذى يحاوطنا من كل جانب؟ وإذ كان الرب هو من جمع والناس لا تقوى على التفريق فإذن الرب أيضًا هو من كتب الفراق، أرضيتم بقضاء اللّـه في الجمع ولم ترتضوا بقضائه في الفراق؟! حيّروني يا إلهي الرحيم وأضاعوني، أهم ضعفاء لا يستطيعون التفريق أم أشدّاء غلاظ يصرُّون على القهر؟!".

أرادت سارة وزياد بعد هذا البَثُّ المباشر أن يطرقا على الحديد وهو ساخن، ولم يكن منطقيًا أن تلجأ سارة إلى الصحافة دون الاعتماد على زياد؛ فهو الصفحي عضو شِلّة العزف وإن لم يكن عازفًا. عقب البَثُّ بيومين دشّن زياد معها حوارًا صحفيًا كبيرًا على صفحتين فى الجريدة التى يرأس تحريرها نبيل عجب، حكت فيه وقصت مرةً أخرى كضربة صحفية تحرك الهامد في مطلبها. بادئ الأمر طار نبيل عجب فرحًا بالحوار، لكنه خاف أن يطير من فوق كرسيه الذي وصل إليه بعدما كدّ واجتهد وطلع دينه كما يقول ويروّج ويستعطف؛ وافق على نشره باليمين ثم بالشمال نسي أفضالى التى تطوّقه والمطبعة السرية التى دزّت عليه اللبنات، فوشى بزياد ابني الذي طالما تغنى أنه من أنبغ اكتشافاته. أخذ إذن النشر من الأعالي بعدما هيّئوا الأرض لبلع زياد وسارة، دارت الأيام فوق رأسي بعدما حضّرت عفريت نبيل عجب ثم لم أُجِذ صرفه فمسني أذاه!

لم تَعُد الجريدة في حيّنا تُسمن أو تُغني من جوع، بات في حكم النُّذرَة أن تُباع عند الكشك المُوزِّع كل النسخ من عدد اليوم، ناهيك عن أن عدد النسخ التي تصل الكشك زهيدة وقليلة ومُخزية. لذلك لم يلقَ الحوار الصحفي صداه الذي تمنّاه زياد، فأخذته الحماسة وكفلت له نصب المصيدة بذاته؛ فأعاد نشره على صفحته الشخصية الموثقة بمواقع التواصل تلك المرة لكثرة روادها، فانتشر كالوباء الذي فارق المعمل فقتل العالم. بعدت النار عن أكمام نبيل ومسكت بجسدَيْ زياد وسارة، وما كان يمكن تفويته من اعتراضات ثُقال في الهواء، صارت على حد زعمهم حملة ممنهجة مُموّلة مدفوعة؛ ما أيسر التضخيم وأسرع الترصُّد في حيّنا! أي حملة تلك التي تنبع من نفس واحدة وحيدة حائرة مكلومة. أشاعوا أنها حملة على الديانة وأهلها وكبارها، تثير الفتنة وتحرك الثابت وتفتح أفواه كثيرة تتألم في صمت. حملة جدير بها الوأد والازدراء لكل مَنْ يساندها ويشارك فيها!

ورقة بيضاء 64

بعد ضجة منشور الحوار الصحفي التي لحقت بضجة البَثّ المباشر؛ حضر زياد إلى أتيليه سارة مهرولًا في تلك الساعة المتأخرة من الليل، حينما كانت تتهيّأ للانصراف، كان صدره ينهج كأنه سيقفز خارج ضلوعه؛ جذبها من يدها في تجرُّؤ طارئ، فارقُ السنوات العشر بينهما يمنعه حتى لو لم تمانع سارة في بذل الود، لكنه أراد الابتعاد بها عن عيون وآذان العمال حولها. في لهوجة أكلت نصف الكلام أخبرها أن البث والحوار الذي أجراه معها أهاج الحي بعدما نافس النار في الانتشار، وتناقلته الألسنة والآراء وتنازع عليه المَدّاحون والشتّامون، حتى حذفه صار رفاهية لا يملكها بعدما تحول إلى عددٍ

لا نهائي من الصور. أحقًا ما تقوله العجائز بأن الهواء يتكلم؟! أهواء حيّنا المبارك كمثل هواء بقية الأحياء؟! هواؤنا يملأوه الهاموش الدائر يبحث عن القرص واللسع، حتى إنهم يُقدمون المستضعفين قربانًا للصواعق. سعّر الهاموش المستيقظ ملءَ جفونه من الحوار وأوصله على طبق من الجحيم والتسخين إلى الكنيسة؛ حتى قامت الدنيا وبقي المطلب الوحيد لتقعد ثانية هو إحضار بطلة البث المباشر والصحفي صانع الحوار كاتب المنشور؛ للمُثول أمام جهات الحسبة على كل شكل ولون، فرسان السماحة وعتاولة البطش؛ لإعادتهم إلى صواب الحي وما خرطته ماكينته منذ زمن بعيد.

لسعات الدموع الساخنة التي انسالت كانت أحنّ على خدّي سارة من صفعات الحكي. حاولت ندى التهوين عليها قبل أن تسألها:

- وبعدين زياد عمل إيه؟!

- معرفش.. هو مشي وماشفتوش من ساعتها!

عندئذٍ دخلت سارة في وصلة من البكاء الشديد، انهارت تمامًا وانهمر شلال الدمع يخامر تشنُّجاتٍ مقهورة، فاحتضنتها ندى ثُربُّث على كتفيها ثم قالت مازحة:

- لا شوفي بقى احنا شكلنا مطوّلين في الحبسة دي.. مش هنقضيها نكد.. نفصل شوية وبعدين يا ستى أهو غار هانى جه أحمد بِس.

ضحكت ندى بالصوت الحيّاني ضحكتها الرنّانة الفضّاحة كأنها في غرفة بيتها لا في محبسها، فتداركت، بضمٍّ عاجلٍ لشفتيها ثم أكملت:

- أول مرة أسمع عن عيلة اسمها "بس".

رغم انفطارها لكنها رأت في ندى السذاجة فقالت مستغربة:

- عيلة إيه يا ندى؟! هو إحنا عارفين له اسم أب عشان يبقى له عيلة!

- يعني إيه؟!

- هو اسمه كده "أحمد بس" ولا حد يعرف قصة "بس" دي إيه!

- أكيد يحيى يعرف.

- في مرة حاولت أقرّره زاغ مني.. بس أكيد يعرف، أصل يحيى عامل زي الصندوق الأسود في الطيارة عارف كل أسرارنا عشان لو الطيارة وقعت يعرفوا حصل إيه.

- عندِك حق يحيى إنسان نادر.. ساعات بحِسّ إنه قطعة واحدة في العالم!

- لا يا شيخة.. شوف مين بيتكلم!

- يا ستي دى حاجة ودي حاجة.. أنا بقول كلمة حق!

- كل اللي يحيى بيعملوا ده ما حرّكش قلبك..؟

تسمّرت عين ندى في الفراغ شاردةً كأنها في سفرٍ إلى عالَمٍ خفيّ، بينما باغتتها سارة:

- لسّه بتحبي باسل؟!

عادت ندى من سفرها على متن السؤال المزعج تحول دفّة الكلام:

- قوليلي صحيح عرفتي يحيى إزاي!

- في كورس الطبلة عنده في الورشة.

ورقة ملونة 9

أسرّ لي كمال أكثر من مرة أنه برغم حبه الشديد لإبراهيم نجم أصبح لا يُطيق سماع سيرة ابنته ندى جزّاء صدّها وتلويعها ليحيى، بالطبع كان يخفي هذا الشعور عن يحيى حتى لا يؤلمه ولا يمنعه من اللجوء إليه بالفضفضة. لكن لأن كمال ذو قلب رقيق ووجدان بصير سرعان ما يخفُّ تحامله على البنت ويتمتم مشجونًا:

- الحب مش بالعافية بردو.. وآه من ميلك يا هوى!

وقتها كنتُ غليظًا بما يكفي فسمّمتُ بدنه بالسخرية والتضئيل مما يشعرون:

- يا عَمّ كمال بلا مرقعة فارغة!

الآن بعد كل هذا العمر لا أجد سببًا وجيهًا يحبني من أجله كمال عزازي!

ورقة بيضاء 65

لم يحدث أن بقيتا - ندى وسارة - على انفراد هكذا لأكثر من ساعة، لكن السّمَر تجوّل وسرح وتصاعد في أفق ذلك المحبس، الذي استحالت رطوبته بردًا يزاحم دخان السجائر النحيفة التي لم تتوقفا عن نفخها الليل كله.

بعد سكوت قصير بادرتها ندى:

- أنا ماقدرش أشرب سجائر عادية زيّك كده.. لازم تكون Flavour توت أو نعناع.

- كنت زيك لفترة لحد ما يحيى خلّاني أجرب النوع الرايق ده.

- آه صحيح أنا لسّه واخدة بالي إنتِ بتشربي نفس نوع سجائر يحيى.. إنت عارفة إن خناقات كتير حصلت بيني وبين باسل بسبب إنه مش عايزني أشرب قصاد حد خصوصًا في التجمُّعات المهمة!

- معقول بيفكر بالطريقة الذكورية دي؟!

- تخيّلي يحيى وميرال كده بالظبط.. حضرت خناقتين لنفس السبب.. بس ميرال هي باسل.. ما كل واحد حُرّ يا جماعة يعمل اللي هو عايزه.. طلّعتوا ميتين أبونا!

- كنت بتلافَى اقعد معاهم لوحدي، حتى أيام البروفات كان لازم يكون انتي أو أحمد موجودين، أو على الأقل زياد..

- هي حسّه؟!

- مفيش ست مش بتحس وتفهم الحاجات دي!

- يا جبروتك!

- قصدك يا قلة حيلتي.. مش بإيدي حاجة!

- هو النصيب كده مش بينيّم حد ع الجنب اللي يريّحه!

لم تبدأ سارة من الصفر في مدرسة يحيى للموسيقى، لكنها تملك إدراكًا موسيقيًا بديعًا وفريدًا لا يقل عن تفرُّدها في تصميمات الفساتين. فضلًا عن شغف يسكن عينيها ساعدها على زيادة غلّتها

من النغم، فتعلمت العزف على الجيتار بجوار الازدياد من الطبلة التي هي حبها الأول. كل ذلك كان محفزًا ليحيى كي يضمّها إلى فرقته، التي كوّنها مرات عديدة ثم يتقلص عددها في كل مرة لمغادرة أعضائها لأسباب شتى. حتى رست باخرة ألحانها على أحمد بس وسارة فرج، ثم اكتملت الرباعية التي طالما نشدها باللقاء الثاني واللقية الحارقة والحضور المعذب لندى نجم، التي تعزف الكمان على أوتار قلب يحيى المُتهتِّكة!

سألت ندى تستدعي الثرثرة على الليلة الطويلة الكبيسة:

- وأحمد بقى شافك أول مرة عند يحيى في الورشة؟

- ما تفكّرنيش يومها كنت هكسر الطبلة فوق رأسه.. كان غتت وحِشري ولازقة، وعايز يتعرّف بالعافية.. في الأول افتكرته مشترك في ورشة الطبلة بس على آخر اليوم عرفت إنه مساعد يحيى وشبه المسئول عن الورشة.

- هو يمكن أحمد عشوائي شوية ولبسه غريب ومزعج لدرجة إن الناس بيفتكروه سرسجي، لكن في الحقيقة موسيقار دماغه كلها مزّيكا ويمكن أكتر من يحيى نفسه باعترافه.. وغير كده يا سارة باين عليه إنه بيموت فيكي.

- طيب، الله يرحمه ويحسن إليه!

ورقة بيضاء 66

بقلبِ أمٍّ مكلومة في البُعد عن ابنها الوحيد تيمو، بل قاب قوسين أو أدنى من الفراق التام الفرّ إذا سافرت أو حلّ بها السوء؛ تذكّرت

غيمه وتمنت لو أن أحمد كان صَبُورًا عليه ولم يضِقْ بصحبته ورعايته في أوقات غياب يحيى؛ خصوصًا بعدما لوّحت ميرال بترك البيت، وإنهاء حياتها كلها مع يحيى. تخشى ندى على غيمه أن يشعر بغيابهم فتصيبه الوحشة والخوف والكدر، بان على سارة الأسي بتقطيبة جبين فقالت مستنكرة:

- ازاي أبوه يهِجّ كده كل شوية ويسيبه مع الناس؟!

- ماعرفش أنا ماشفتش أبوه إلا مرتين بالعدد وصدفة كمان.

- مش قادرة أستوعب القسوة والندالة.. ده رجل ده!

- يا سارة رجّالة إيه بس.. اللي جابك هربانة هنا رجل واللي جابني هربانة هنا رجل!

- بس ماتنسيش يا ندى إن اللي حامينا وجايبنا هنا رجل!

- المهم إحنا ما نعرفش خبايا أبو حسن إيه.. بس بقولّك بلاش تحكي في الموضوع ده قصاد يحيى أو تغلطي فيه، إنتي عارفة غلاوته عند يحيى.

فجأةً وضعت ندى يدها على فم سارة تكتم الكلام في مهده، ثم سحبت يدها بهدوء مرتاب تطالبها بالصمت بإشارة السبّابة على الفم، نهضتا من فرش الأرض البالى تتجهان ناحية الباب حافيتين حتى من الخلخال.. ثم بكتم الأنفاس أطفأت ندى نور المحبس الضعيف تنفيذًا لأوامر يحيى إذا سمعتا خطوات أقدام بالخارج!

***

فين السنيورة؟!

ورقة بيضاء 67

بلع أمجد يوسف حلقته عن الحريات المطلقة غير المحدودة بشربةٍ سهّلت من إخراجه لها سريعًا كالخراء، أعدّ حلقة نارية عن الفتنة التي تُؤجّج، والازدراء الذي يمسّ العقائد الدينية، وهذين الشابين اللذين اختفيا وجارٍ البحث عنهما. كانت أخبار قد تسربت عمدًا قبل بدء الحلقة بدقائق عن تفجير الإعلامي الكبير أمجد يوسف لمفاجأة تخص مكان اختبائهما، لكنه تنصّل من هذه الإشاعات مؤكدًا أنه رجل مسئول لن يُتاجر بأية معلومات تخص أمن الحي إن كانت فعلًا لديه، بل سيودعها أمام مكاتب المَعنيّين، ثم رخّم صوته في شجن وقال: "لا مساسَ بسلامة الحي وأمنه وسِلْمه الاجتماعي".

خصّص الفقرة التالية من الحلقة نفسها لمحاورة الباحث التاريخي الشهير الأشهر في الحي والأحياء المجاورة، سامر لاشين؛ وجاء الحديث حول المسرح المهجور والماء الأخضر وحقيقة إذا ما كان فعلًا ذا أهمية تاريخية، أو كان له أية علاقة بمعركة الحي الكبرى، أو حتى يُمثل للحي أي أثر وقيمة ما. أم أن كل ما يُثار حوله أكاذيب وضلالات توارثتها الأجيال كالمقام لوَلِيّ كذاب.

***

"جاء وقت إزالة الخرافة"

بهذه العبارة بدأ أمجد الفقرة وقد مهّد بها القضبان التي لا ينبغي لقطار سامر أن يخرج عنها. صال وجال سامر لاشين في قطع

ألسنة المُتقوّلين، وتبيان الحقيقة وتقديم الدلائل التاريخية؛ أحادية الجانب والمصدر، على أن ذلك المسرح ما هو إلا بناء متأخر لا علاقة له بمعركة الحي الكبرى، وأرضه ليست ذات مكانة خاصة ولا تحتضن رُفات الشهداء الأطهار. استخدم البراهين المنطقية، واستشهد بباحثين قدامي ومعاصرين يجمعهم جميعًا الموت يزعم أنهم يشاركونه الرأي والحُجّة، ثم أظهر العين الحمراء للمشاهدين يوبّخهم قائلًا:

- مَنْ يريد أن يتأكد أو يطّلع عليه بالبحث لا النفي بجهالة.

ثم طلب منه أمجد في التواء الثعبان حول الكأس في شعار الأجزخانة:

- تختتم تقول إيه يا دكتور سامر لمروّجي الإشاعات ومهاجمي المشروع الكبير المخطط بناؤه مكان هذا المسرح القبيح؟!

رد بنبرة مسرحية قاطعة:

- كفاكم عبثًا وجهلًا ومهاجمة الشرفاء، أنتم تتحدثون عن التفريط، لا تفريط فيما لا أصل متينًا له، بل وجب الانتفاع منه لخير الحي كله.. استقيموا لوجه اللّـه من أجل الحي!

ورقة بيضاء 68

"اللي بتدور عليها مستخبية في بدروم المسرح المهجور".

فوق قلاية من الشوك المشتعل تقلب باسل قمر على جنباته، يُربيه المجهول من أول وجديد. الضجيج يضرب رأسه في عز الصمت ونوبات التيه تجره في عز انتباهه. ألقى بالهاتف على مرمى يده بدلًا

من المرة عشرين مرة هي عدد المرات التي اتصل بأمجد يوسف ولم يُجِبه. في إحدى الرميات كاد الهاتف أن يُهشم. الهادئ الموصوف بالبرود أوشك على الجنون والاحتراق. ثم قبل الانفجار بلحظات أتاه صوت أمجد ملفوفًا بمكر السحرة:

- باسل بك سامحني كنت على الهواء.. يدوبك طلعنا فاصل وكلمتك.. خير يارب؟!

- مش هعطلك بس وصلتني رسالة من رقم Private بخصوص مكان ندى وافتكرت انت اللي باعتها.

- مني ازاي يا رجل يا طيب ما احنا متفقين على فين السنيورة وكمان..... طيب باسل بك معلش مضطر أرجع للهواء، ابعتلي الرسالة وأنا هتصرف!

- حاول بسرعة!

عاد أمجد بعد الفاصل يأكل الشاشة بوجه ظافر مظفر، حماسي متحمس، مهللًا مُعليًا نبرة صوته العالية من الأساس يكاد يغرز علم الحي في جبينه العريض وفوق الطاولة الزجاج وفي كل الموجودات من حوله. ثم قال والانتشاء ينفجر من رأسه:

- على ضمانتي وبكل فخر وإيمان عظيم عريض هذا الحي العظيم سيظل بخير.. أنا واثق من كده ثقة عمياء، هيفضل بخير أهله وناسه ورجاله المخلصين.. يا حضرات إحنا معانا سبق خصنا به في الفاصل أحد رجال الحي المخلصين، الذي رفض الدخول في مداخلة لأنه مش من هواة الظهور ولا إنه يقال عليه بيأخد اللقطة، لكن من باب

إعطاء الحق لأصحابه لازم أقول اسمه وأشكره ومن الواجب إن الحي يعرف أبناءه الأبرار.. تواصل معنا رجل الأعمال الناجح وأحد أهم المخلصين للحي والصديق العزيز عشرة العمر حقيقي المهندس باسل قمر، وبلغنى إنه وصله خبر أكيد عن المكان المختبئ فيه البنت اللي اسمها سارة فرج والواد الصحفي زياد اللي كنت بحكي لكم قصته قبل الفاصل. الصراحة هناك مفاجأتين، الأولى هو مكان الاختباء وحفاظًا على السرية بالطبع لن أفصح عنه؛ خصوصًا إن باسل بك طلب كده بنفسه لأنه فعليًا حالًا قام بتقديم بلاغ بكافة التفاصيل، ووضع الأمر كله أمام الجهات المعنية. أما المفاجأة الثانية، وهي دليل دامغ على نزاهة هذا الرجل وميله للعدالة فوق أي اعتبارات شخصية؛ لأن من ضمن التفاصيل التي أدلى بها إن الهاربة ندى نجم صاحبة الفيديو المخل الشهير مختبئة هي الأخرى في نفس المكان، والجدير بالذكر أن الهاربة هي طليقة باسل بك قمر وأم ابنه. المفارقة الغريبة إن ما جمع إلا ما وفق، والطيور على أشكالها تقع في نفس المخبأ، سارة التي تزدري الدين مع ندى التي تنشر الفجور، لكن أبى اللّـه إلا أن يتم نوره وبإذن اللّـه من دلوقتي لحد الصبح هنسمع أخبار عظيمة من أمن الحي الصاحي المصحصح!

ورقة بيضاء 69

في تلك الليلة كان الكأس مراراته ثقيلة، أن تملأ الزجاجة ثم تمرُّ الأيام وتظن أنك في مأمن من السُمّ، ثم يصب لك الساقي متجاهلًا أنكما قد وضعتماه معًا من ذي قبل. هاهما نبيل وأمجد يطعنانني في ابني بنفس السيف الذي غطسته في الزيت المغلي ليطعنا به إبراهيم نجم؛ ذلك الخِنجَر المعلق في بدلته الفارهة، الميكروفون، شرع عبره

في التشهير بزياد مرتديًا قُبّعة الخوف على الحي، ذبحه وذبحني معه. اغتممتُ مرتين؛ مرة لما سمعته من هذا النذل، وأنا آخر من يبرئ نفسه من النذالة. والمرة الثانية لأنني لم أكن أعرف أين يختبئ ولدي.

حذّرني كمال مرارًا من التعاون مع أمجد، أو حتى أن أعطيه ريقًا حلوًا في الكلام، كان يكره طلّته ووجوده، طالما وصفه بالعرص الذي يمشي بالمَثَل "اللي يتجوز أمي أقول له يا عمي". كالعادة يا كمال كنتَ محقًا في نظرتك وكنتُ مغاليًا في الاعتراض عليك بل والسخرية منك، كنتَ أنت أبعد مني نظرًا وكنتُ أنا أشرّ وأضلّ سبيلًا! ضربني العرص في مقتل!

مادت الأرض من تحتي وأخذتني نوبة إغماء جديدة، حين أفقتُ منها شبه تيقنت أنني فقدت زياد. احترق صدري وحشرج حلقي وتقطعت نياط قلبي، حتى صارت الشيشة التي هي سلوتي لا تُسليني، وباتت حُرقة قلبي ولعتها لا تخبو. تمنيت الخلاص من كل قلبي لكني ظللتُ لأحكي لعلّي أتطهّر!

غِـيـمَـه

ورقة بيضاء 70

فقدت الصحيح والعليل!

انقلب القلق غمًا واستحال الغمُ عجزًا وضعفًا، لا ألوي على فعل شيء سوى الدعاء للجميع بالنجاة وألا تريني الأيام مكروهًا في لحمي ودمي وضناي، وألا أُعامل بما أستحق. لكن سرعان ما مسني استبياع الحزن، فمدني شري برغبة الانتقام فقررت أن أقتل أمجد يوسف. ضاقت في عيني كل الحلول إلا قتله؛ على الأقل أنهى حياتي ببعض الرضا عن نفسي. حتى الوحشة التي تهز ضلوعي لكمال عزازي نحيتها جانبًا في تلك اللحظة، القلوب مسلمة عن بعد فضلًا عن كوني لا أعلم موعدًا لعودته، ثم إن غيمه، الأمانة المتدلية في رقبته سلمها ليحيى وهي تحت عينيه على أكمل وجه. كل شيء يتراقص ويميل أمام عيني نحو قتل ذلك العرص الكبير أمجد يوسف.

استيقظت في اليوم التالي وقد بدا أنها كانت دفقة عفية سرعان ما طرحت ثمرة هزيلة. فرت تلك الطاقة الملغزة من داخلي وخلفت وراءها ذلًا وجبنًا، فقررت إعادة كتابة هذا الجزء في ورقة ملونة لا تعلق لتبقى رغبة قتله سِرًا.

***

فطن يحيى للطبخة التي تُطهى له على مهل. وهتف به حدسه بأن ما منع جريان اسمه على لسان أمجد يوسف في حلقة السبق

والأسرار؛ والزج به في تابوت العصاة المجرمين، إلا لاعتباره الأرز الذي يلزمه التسوية على نار هادئة. تيقن أن الوقت ليس في صالحه، حتى ميرال لم يجدها في المنزل عندما عاد ليرحل، تركت له رسالة واضحة لا تحتاج التأويل "يا يحيى مش قادرة أكمل.. خلي بالك من نفسك". لم يملك رفاهية الوقت للعتاب والملامة، ساعتها ما أهمه من الاهتمام والهم؛ الاطمئنان على غيمه، يخشى أن يتعرض للخطر أو يمسه سوء. عندما لم يأتِ به لي، عرفت إجابة السؤال الذي كاد يقتلني فضولًا، هل وصلت حدود العلاقة بين كمال ويحيى إلى حدود المصارحة المطلقة فيبوح له بأسراري ومهنتي؟! كنت أظنه سيخشى على خدش صورته أمام ابنه الذي لم ينجبه حين يعرف إنه شريكي في المطبعة السرية والتزوير، لكنهما اطمأنًا لبعضهما حد التعرّي. منذ آخر حوار دار بيننا وغضب كمال، لم أكررها مخافة أن يظن أنني أنحشر بينهما للتفريق، تركته لراحته بينما وضعت يدي على قلبي أن تدر علينا هذه العلاقة المتاعب! ولم يكن يحيى ليذهب بغيمه إلى أحد يكرهه كمال عزازي، يحيى يعرف لمن يميل قلبه، وربما كنت المستبعد الوحيد لهذه المهمة رغم ثبوتي في قلب كمال! بعد يحيى لن يرضى كمال عزازي بأحد يكفل غيمه ورعايته سوى أيمن باري، يحبه ويبتهج لرؤيته ويضعه في مكانة عالية المقام، بل كان ولا يزال أخف على قلبي من يحيى نفسه.

ورقة بيضاء 71

كأنه ينزل أحجار المعابد القديمة من فوق كتفه؛ أخبر يحيى أيمن بما يدور في رأسه، أبلغه بخطته وخط سيره، يكاد يكون أيمن متفقًا عليه من الجميع، ومحل ثقة الجميع، طيف من النبل يمضي وسط

حياة قاسية. قَبّل يحيى غيمه واحتضنه بشدة أربكت الولد وطفر القلق فوق جفنيه المقفلين فقال:

- هو فيه حاجة يا أبيه يحيى؟!

بصوت يلملم العبات كي لا ينفرط:

- مفيش يا حبيبي.. أنا مسافر شغل وهسيبك مع أبيه أيمن، إنت بتحبه اسمع كلامه.

- حاضر.. أنا كمان هروح مع أبيه أيمن الاستاد الماتش الجاي.

من ضمن مجموع مواهب يتميز بها أيمن باري قدرته البارعة على الوصف، التي تؤهله ليصبح مذيعًا في الراديو أو معلقًا على الأحداث عمومًا والمباريات خصوصًا؛ لذا اعتاد أن يستخدم موهبته تلك مع غيمه كلما اصطحبه في مشوار الاستاد الذي هو قرة عين غيمه وسعادته الكبرى في الحياة.

تنحى يحيى بأيمن جانبًا بعيدًا عن مسامع غيمه القوية التي عوضته عن بصره الذي لا يعوض، ثم قال:

- أنا مطمن على حسن عشان معاك، وعايزه يكون بعيد عن الأحداث وما يعرفش حاجة مهما حصل لي.. وسلموا لأبوه أول ما يرجع!

- حاضر يا يحيى ما تقلقش..

***

دَغبَستْ وراء زوجة كمال الآتية من البلد وعائلتها تحسبًا أن

أحدهم ذا نزعة تصوف جذب كمال إليه. فلم أجد، بل وصلني أن منهم قطاع طرق وإرهابيين؛ فأشفقت عليه في صمت من تلك الحفرة التي أوقع نفسه فيها. كففت عن البحث عن أسباب تغيُّر كمال وانجذابه وسياحته في الأرض، وإن اعتقدت أن الشيء الذي راح إليه كان يبحث عنه، ليس ذلك ضربًا من الدروشة نقله لي بقدر ما هو وقوفٌ على حقيقة لا تُنكر. وربما كنت سببًا ضليعًا في سدة نفسه عن الحياة، وصدمته الكبرى. اعتاد على الاختفاء فجأة دون سابق إنذار كأنه يهج، بل هو كذلك. يذهب إلى حيث أشار عليه وجده ووجدانه، لم أصارحه أبدًا بما يصلني عنه، تركته لشأنه إذا كان ذلك يريحه، لكن ما أحزنني وعز عليّ أن يصفه الناس بالجنون إذ شاهدوه على أرصفة مساجد الأولياء هائمًا شاردًا سارحًا في ملكوت لم يصل إليه غيره، ومرات يضبطونه يفترش أمامهم يبيع السبح والبخور والأمساك. ثم يتنقل بين تربيعات الأرصفة في سهولة تنقل الأثرياء فوق ريش النعام. لم يَبُح لي عن سر هذا التحول، وربما كانت المرة الأولى والوحيدة في تاريخ علاقتنا أن يخفي عليّ أمرًا، جئته من اليمين واليسار، بالتحايل والصراحة، لكن دون جدوى، قفل على صدره بالشمع الأحمر ولم يسمح لأحد أن يتطفل أو يفسد عليه هيامه، اللّهم إلا يحيى بديع الذي كشف له عن خبيئته. الحق أن الزعل انتابني والغصة أكلتني لكن سرعان ما انمحيا لاكتشافي أنني لا أقوى على الزعل من كمال عزازي.. غريب أمري مع هذا الرجل، أضبط نفسي متلبسًا تجاهه بمشاعر غريبة عني ضننت بها على ضنايا نفسه!

ورقة بيضاء 72

ذات ظهيرة أخذني كمال من يدي بعيدًا عن ضوضاء المطبعة يطلب الانفراد في مقهى بسيط، لعلها كانت المرة الأخيرة التي جلس فيها، أمسكني من ذراعي بقوة تخالف رطابته رغم جسده العفي، حتى إن أصابعه قد طبعت فوق لحمي علامات حمراء. أجلسني كالمقبوض عليه بغلظة متوترة، كان يُفرط في الغلظة مخافة أن تَفرط منه فيقل عزمه، طفرت مني ابتسامه خفيفة لم تزقّ لبيان الأسنان؛ لأنني تخيلته أمامي مطبقًا على طبق من الشراب الساخن يندلق منه شيئًا فشيئًا كلما تقدم. اعتراني قلق لم يجعله ينفرد بي طويلًا إذ قالها جملة واحدة دون انقطاع كأنه يقذفها بعد طول مشاورة مع النفس:

- زياد عرف موضوع المطبعة السرية!

ثلاثة فقط من يعرفون أن غيمه هو حسن، وحسن هو غيمه، كمال ويحيى، وأنا الراوي العليم المتنمر الذي أطلق على حسن اسم غيمه؛ بدأتها بالإشارة إلى بصره المفقود، أي أنه يعيش في غيمة. نهرني كمال لكنِ لم أرتجع، ولم أرَ فيه أي سوء أو أذى، وبالتبعية وطبيعة ما بين كمال ويحيى، حكى له كمال فاشمأز يحيى وزاد نفوره مني. هذا اللقب عصر قلب كمال كلما سمعه مني. أنا رجل قديم من زمن قديم يُعتقد فيه أن الكبير يحق له نعت الصغير بما يشاء، اعتمادًا على سيف الحياء الذي يمنع الصغير من الإعتراض والرد. عندما فشل كمال في إثنائي عن ترديد غيمه طلب مني ألا أستخدمه أمام الناس كي لا يسمعه حسن فتتجرح نفسيته، ثم قال نقلًا عن يحيى إن الصغير يتأثر نفسيًا بمثل هذ التنمر ويختزله بداخله في صورة شحنات من الشحن والحزن والأذى والكآبة، وذلك يحدث للصحيح

فما بالك بصاحب العلة!

ورقة بيضاء 73

السر البشري أكبر من أن نفك طلسمه، أو نتصور أننا أبحرنا بعيدًا عن بره وشطه، أو نتوهم حتى الوصول إلى لُب كيانه ومكنونه وظاهره وباطنه وأغواره وأهواله وسحره وعجزه وخيره وشره. إذ كيف نفسر مراسم قبولنا للآخرين واختلافات وتيرة ذلك القبول من عدمها. أرى أنني أتفلسف قليلًا، لكن في التجمل إحساس كاذب بالذات؛ أنا في أمسّ حاجة له بعد كل هذا البكاء الذي اجتاحني فور الانتهاء من كتابة الورقة السابقة، فيها عرف زياد سري الأسود وفيها اعترفت إنني المتنمر القبيح. كأن أحداقي ادخرت الدموع طيلة عمري حتى أُطلقها الآن بغزارة، يشهد عليها جلبابي الرمادي الذي حمل آثارها وقطراتها. كنت وقتما أرى دموع باري أبو أيمن القريبة أتعجب وأستهجن وأنهره وأكفُّه عن الاستمرار في ذلك؛ كي لا ينتقص من هيبتنا في مقهى بسيط. لكن كنت لا أقوى على فرد قلوعي بالكامل مع باري كما كنت أفعل مع غيره، لسر ما غامض ربما يتعلق بتلك الأسرار البشرية الخفية الخاصة بالقبول، إذ بدون مبرر مفسر تنجذب لفلان وتدبر عن فلان. كان باري من أصحاب القبول اللافت الباهر الذي ينتزع منك الابتسام دون مقاومة ولا مجهود، تعرض عليه تقديم عينيك له دون ترتيب مُسبّق للكلام ولا حساب، أنت فقط تتبع شعورك الذي ليس بالضرورة أن تكون فهمته بالكلية. ولأن جزاء الإحسان الإحسان فقد خلف باري ولدًا اسمه أيمن، حمل في وريده نفس محاسنه وطبعه وزرق القبول المشع بالمودة ذاته. أول ما رأيته كان ابن الثانية عشرة؛ طفلًا حالمًا وديعًا، يدخل قلبك

من أول نظرة، مهووسًا بلعب الكرة، أتى به بارى كي أتوسط له عند كباتن أندية الحي الكبرى الذين أعرفهم ويجالسونني. لحظتها انبرى أيمن يتحدث للمرّة الأولى منذ جاء في يد أبيه: "أنا بشجع النادي الأحمر" بالفعل وصلته بأحد كباتن النادي الأحمر لكن يقينًا لا أعلم ماذا جرى بعد ذلك، لكن الواقع بقدريته هو من طغى؛ إذ استفحلت عليه موهبته في الرسم بأنواعه خصوصًا الكاريكتير وملكت عليه كيانه؛ مما جعل الاستمرار في أي شيء آخر مستحيلًا، إلا أنه ظل مشجعًا عتيدًا للنادي الأحمر، يُضرب به الأمثال في حب تفاصيله وكيانه وبطولاته!

ورقة بيضاء 74

لم يمنع فارق السنوات العشر بين يحيى وأيمن من الصداقة التي تخطت أي سر مخفي وفاقت الثقة العمياء. يكاد يكون أيمن هو الشخص الأقرب إلى يحيى بعد أبيه الروحي كمال عزازي، حتى إنه يسبق أصحاب العزف ورواد غرفة الانسجام دون أن يجور على نبضات ندى في قلب يحيى. بالطبع كان أيمن أحد روادها الهائمين لكن عادة ما كان يأتي منفردًا ونادرًا ما حضر وهم حضور. فهو ليس بعازف وكثيرًا من لطفه خشي أن يقطع بحضوره ما يصلونه من موسيقى كفرقة. أيمن يعرف زياد ويعرف أنه ابني وتعرف على الشلة كلها برعاية يحيى لكنه لم يتداخل معهم بما يكفي. ولا أدرى أهو قرار منفصل من يحيى أم إتفاق بينه وبين كمال أن يشارك أيمن في رعاية غيمه. بيدَ أن تصاريف الأقدار كانت على وفاق مع هذا القرار؛ إذ سار الولد الأعمى وراء سمعه وروحه فانجذب إلى أيمن باري أيما انجذاب حتى استحوذ على قلبه، وسقاه أيمن حب الفريق الأحمر

حتى تشبع بحبه، وقص عليه تاريخه الطويل مستخدمًا موهبته الإذاعية المعطلة، حتى شعار النادي حببه فيه بعد وصفه له بالدقة الكافية. ثم باتت أسعد أوقات أيمن حين يصف له كل المباريات في المقهى عند بسيط أو في غرفة الانسجام عند يحيى أو في الاستاد في قلب الحي. ثم إن الضجيج الذي كان يشكو منه يحيى أثناء المباريات بات لطيفًا على قلبه وهو يراقب السعادة تحفُّ غيمه، بل تطورت الحكاية أن أصبح بمقدور غيمه متابعة المباريات بمفرده في أوقات انشغال أيمن، امتلك الحس باللعبة بما يكفي ليبقى التفاعل والاندماج طازجًا، بل الاستشراف والتوقع ومسايرة سير المباراة.

وجد غيمه ضالته في كرة القدم، وملأ النادي الأحمر عليه كل حياته ودَرَّ عليه وافر السعادة والانبساط!

الوقت ضيق والفراق القاسي حل، هَمّ يحيى بتركهما لكنه التفت وعاد كأن هاتفًا دس في أذنه أمرًا، أغلق الباب واحتضن غيمه من جديد بحرارة، ثم خلع عن رقبته سلسلة فضة ألبسها إياه ثم قال:

- خليك لابسها يا حسن.. إوعى تقلعها.

ثم نظر إلى أيمن يغمره الهم:

- لما كمال يرجع عزّفه إن حسن لابس السلسلة.

- مكتوب عليها إيه؟!

- يا عزيز عيني!

يا عـزيـز عـينـي

ورقة بيضاء 75

اليوم جمعة والسماء غامضة، مصبوغة بلون الغيم قاطمة؛ تليق بالخريف الذي يغرز لسعاته في الأجساد الملتاعة وينثر سكونه في النفوس التي تهاب السكون.. تلبيدة السحب ملأت الصدور وباتت الشمس أبعد منالًا.. مال كل شيء في الحي إلى الترقب.. طال العشم قلبي في نجاة العيال وما أقسى العشم! وما أبعد النجاة!

منذ شعاع الصباح والشوارع تنهض من شباتها، آثار حركات منظمة ودبيب شيء ما سيحدث، العربات المخيفة الكبيرة تملأ الحي وتتحسس أسفلته، لا تحدث مثل هذه التحركات في الحي إلا بضوء أخضر من مشكاة الأعالي، إشعار ببصمة الصوت الأجش الرصينة العالمة ببواطن الأمور، لا حاجة لورقة توقع أو ختم تدوي طرقعته فوق ورقة بالية.. تكفي مكالمة هاتفية من رقم مجهول كتلك المكالمة التي أيقظت الشيخ عمرو درويش قبل الفجر بقليل، قام الشيخ تلهب مناماته الرنّات المتتاليات، بالكاد يفتح عينيه الضيقتين يُحوقِل مفزوعًا بصوت مسته حشرجة الكرى. نهض الشيخ عمرو يطقطق عضلات جسده الممشوق وما أكثرها، تمرينات الحديد كانت قاسية الليلة الفائتة. جذب التليفون بغضب ينتوى تأديب المتصل في هذه الساعة المتأخرة، لكن سرعان ما تلاشى حنقه وخفض صوته وتطأطأ وانصاع فور سماع الصوت الرصين الرزين الدقيق الواثق المتأني الثاقب المستعلي المَهِيب الآمر الناهي المهذب في اصطناع، المتبجح بعناية الصواب والخطأ، جاء الصوت لا يحير

سامعه:

- أنا قلت كده بردو.. أكيد الشيخ عمرو بيستعد لصلاة الفجر ومش هانقلقه، وافرض قلقانك يا مولانا ما يجراش حاجة.. ولا إيه؟!

بوجه مأخوذ وشدهة تتسلق ذهنه أجاب:

- آه فعلًا كنت بستعد للصلاة..

- ربنا يتقبل.. الساعة عشرة صباحًا هتروح الجامع الكبير عشان تستعد لخطبة الجمعة.. طبعًا عارفه.. مش النهارده الجمعة أصل الواحد كبر وبقى ينسى..

- آه الجمعة.. بس الجامع الكبير له إمام؟!

قاطعه بنبرة محمر عيناها:

- إمام مين يا شيخ عمرو! اتوكل على الله وبعدها تاخد حبايبك وتقضي اليوم كله عند المسرح المهجور.. إيه مش عايز تخلص منه؟!

- ياريت خلّينا نطهر الحي!

- طيب على البركة.. أسيبك بقى عشان الفجر وجب.. ولا هتكمل نوم!

ورقة بيضاء 76

غمر الحيّ وافز البرودة والكآبة الغامضة، وكأن مكانه من الدنيا قد تبدل وتحرك. وزادت عيار كآبة هذه الليلة عيارين، فعندما استتبّ الظلام بغلاف الحي، ودابت الأدمغة في تنبلة النوم، وصار تسلل الأقدام خارج الأغطية جهادًا يدعو للانزعاج والثواب. خرج يحيى

في غبشته قاصدًا المسرح المهجور، متيقنًا من وجود من يتبعه خطوة بخطوة، لكنه لم يبالِ ولم يتلفت وراءه. وقد كان المسرح مهجورًا قبل أن يرتدوا واحدًا تلو الآخر ثوب المكتشفين بأمر يحيى مدفوعين بطاقة قصوى للهرب، يختبئون في غرفه السفلية السرية.. لم يأتِ يحيى بمفرده، بل جاء يحمل عزوتهم وسلوتهم وأحبّ الأشياء إليهم، آلاتهم الموسيقية؛ كأنه حضر خصيصًا ليحملهم من حضيض الصمت إلى أعالي النغم، لا ليحتمي بهم ومعهم في المسرح المحكوم عليه بالفَنَاء، مثلهم تمامًا!

حطّت الدهشة الكبرى رَحلها وسطهم وبين أعينهم؛ إذ كيف وصلت مفاتيح هذه الغرف إلى أيدي يحيى. جمع شملهم دون أن يفهموا سبب مجيئه ليختبئ معهم، لم يخبر سوى أيمن عن أمر فصله وسببه، وناهيك عن المفاجأة التي انتابت المحابيس الأربعة عندما رأوا بعضهم البعض، إذ دخلت سارة في وصلة من القهقهة الهيستيرية كالمساطيل بعدما كانت تُشدَّد على يحيى بألا يخبر أحمد بمكان اختبائها بينما أحمد كان يجاورها، وسرعان ما تحوّلت سارة من القهقهة إلى البكاء الحاد والتشنُّج واللّطم والصريخ، ثم انهالت على وجه زياد تصفعه دون توقف في انهيار تام وهيستريا مدوية وسط ذهول الكل، الذين زاد ذهولهم وكادت عقولهم تشطُّ لِمَا تفعله سارة من جنون؛ خصوصًا بعدما انقلبت الصفعات في لمح البصر إلى أحضان، تحضن زياد نادمةً ومتأسفةً وملتاعةً تنهنه وتقول: معلش بجد معلش.. أقلقت على زياد إلى حد الانفطار؟! الارتعاشات التي أصابتها في حضن ندى وهي تواسيها، وَشَت بأنّ في الأمر ألمًا عميقًا وغوثاء مريرةً وسرًا خطيرًا!

لم أكن أعلم ذلك السر الخطير، بل كنته أنا، أنا الراوي العليم الذي يفعل الآثام ثم يتكبّد أولاده الضرائب الباهظة! سأفضُّ السر كما انتويت من الورقة الأولى فضَّ كل شيء.

ورقة بيضاء 77

وقتما تأكدت أن زياد في خطر وكرب عظيمين، بعد هياج مواقع التواصل بسبب الحوار الذي أجراه مع سارة فرج ونشره على صفحته؛ أغلقت الهاتف غضبانَ ينهشني اليأس والموت، فزُحتُ أجلس في البلكونة لا ألوي على شيء ولا أعلم بمَنْ ألوذ، هاتفتُ أيمن باري لأسأله عن مكان زياد فقال لا أعلم، وأيمن لا يكذب. لحظتها لم يكن قابل يحيى بعد ليعرف ما في أمّ رأسه من خُطَط. فأخذتني غفوة في ملكوت البلكونة وقلة حيلتي. تراءى أمامي في غبشة ليل دامس بحر موحش من الدماء، أمواجه حمراء سوداء، تعاقلت بالقتلى والغرقَى والطافِين. بالكاد أقف وحدي فوق الرمال السّخابة الساخنة، يعتلي وجهي خربشاتٌ من أثر مقاومةٍ ما، أرتدي بيجاما غُزس سوداء حريرية، وأمسك بيدي اليمنى سيفًا بتّارًا يلمع بالدم، بينما أعصر باليسرى نهدًا أليَن من الإسفنج. ثم لاحت يدٌ أنثوية حمراء في أفق الماء، بيدَ أن صاحبتها لا تزال حية غريقة تستجدي منقذًا، فاقتربت من اليد النابضة وقد خُفر على راحتها اسمي، فانقضضتُ عليها أقطعها حتى فار الدم الساخن في وجهي.

أفقت غرقانَ في البلل، أتحسّس وجهي بحذر، حتى تبينت أنها ملوحة العرق لا لزوجة الدم. وخطرت نسمة طراوة في الجو كتلك التي تلفح وجوه الأطفال فور استيقاظهم فتضربهم بالزكام. لكنها

أنعشت أوصالي في غرابة، شعرت بالجوع والعطش هفتانَ ظمآن؛ لدرجة أنني اتصلت بالحاتي بعد الزهد الطويل في الكباب، وانتماءً لما تعوّدتْ عليه سنين، طلبت صندوقًا صغيرًا من البيرة ليؤنس وحدة الكباب على المائدة.. عدتُ للبلكونة أخشى أن تذهب النسمة لكنها كانت في انتظاري تأبَى الرحيل، منّيتُ نفسي أن زياد بخير وسينجو. في غمرة الانتعاش الذي أعقب الكابوس لدرجة شكّي في كونه كابوسًا؛ نسيت أن لي ابنًا في محنة، والأصدق أنني نسيت أن لي ابنًا، كدت أغفو ثانية، ولا ضمان عندئذ إذ كنت سأصحو متمسكًا بالكباب أم ستطرده تقلبات مِزاجي، لكنها غفوة لم تغطس في الكرَى ولم تذُق طعم السِّنَة؛ إذ ضرب جرس الباب ضربتين دلّتا على غربة من ضربه؛ لأن أصدقائي وأقاربي الزائرين يعلمون لين الزر وكسلي عن إصلاحه، فتعودوا ضربه في حنان خشية إزعاجي. نهضت فرحًا بوصول الكباب، فوجدت الماء في خِضمّ انتظاري للتيمُّم، وجدتُها تقف أمام الباب، امرأة ممشوقة كالفَرَسَة، لم أقصد هذا الجوع وإن كنت لا أصد قرصته، كانت خمرية جذابة، شهية دسمة الأنوثة، ألجمتني طلّتها، كنتُ كمَنْ أُحيل إلى المعاش ثم استشارته الشركة في مسألة! سألتها من تكون تحرسها نظرات عيني المتبجحة، جبتُ عاليها سافلها في وقاحةٍ تسري مني كالدم، فقالت في نبرةٍ وَدَودٍ:

- إزيّك يا أنكل.. أنا سارة.. زياد موجود؟!

ورقة بيضاء 78

قبل هذا اللقاء الذي حطّ فوق رأسي فجأةً لم أكن تمعنتُ في هيئة تلك المرأة التي جزّت زياد لكل هذه المتاعب. لا أنفض ثوبه من

الطيش، بل هو الذي سعى إليه بقدميه لإثبات ذاته في الصحافة. هو مثلي؛ لا يفعل شيئًا بالجبر، مع اختلاف الغاية والوسيلة. لمحت وجهها سريعًا في منشورات مواقع التواصل، لكن لم أفحص طاقة الوَهَج والسخونة الصادرة منها كما فعلت عندما أدخلتها كضيفةٍ تسأل عن ابني. دلّ السؤال على اختفاء زياد التام، كنت أحسبه معهم، وكانوا يحسبونه معي. مارست مكري فعرفت أنها أتت تسأل عليه من تلقاء نفسها، لا أحد يعرف أنها تجلس على الأريكة المذهبة أمامي، أضيفها بما يليق، استجابت للدخول لأنها في حضرة أبيها، مقام أبيها، لم أكن أبًا صالحًا لأبنائي البتة لأكون صالحًا لمَن هم دونهم! أخبرتُها بالدموع الآدمية أن الخوف يأكلني على زياد، انهرتُ تمامًا، واستني متأسفة لما جرى له بسببها، ذهبت إلى المطبخ لتجلب كوب ماء وآخر ليمون إن وُجد. راقبتُها في شغفٍ من مقعدي الكاشف، عادت تسير بقوامها الحار الحارق، اقتربت تطيّب خاطري، وسرعان ما طمعت التماسيح في دموعي، عوى الذئب بداخلي فأصاب عقلي بالصنج، قام ثعباني من مرقده. الحق أنه لم يرقد يومًا، وقتَها كنت لم أزل عفيًا، اشرأبّ للزائرة التي ألهبته، ساقني كما تعود، أوردني مهالك الخطيئة والندم، تعكّزت على ثعباني المنتفض. راوغت سارة بحلو الكلام، رددت لها الهدهدة، في رصانةٍ شاركتُها الهَمّ، أنتِ الأخرى في محنة كبرى، من حقك أن تفتحي صفحة جديدة، ضغطت على يدها أجس حرارة الشجن والقرب. كان صعبًا على فتاة في عِقدها أن تجد سبيل نجاة وتتفلّت من واعر مِزواغ فاسد مغتصب مثلي كفّ عن عد العقود منذ عقود. انطلق زنادي، أحست بأبوّتي تنسحب لصالح فحولتي التي جاست بالهمس

واللمس، تشنّجت تبتعد فضممتها في حنان يُربك المرأة ثم جذبتها في غطرسة حاكم، بيدَ أن قبضتي لا تزال خشنة تصيب بالرعب والفضول واللذة، قاوحتني عيناها وعاندني رأسها. حاولت الصراخ لطمتها دون نزف، كانت في صدمة تامة مؤكدة، لم يكن جسدها على نفس مقاومة العين والرأس، فطنتُ في معمعة المقاومة أن الضربة القاضية هي ذبح ضميرها البادي توشله في العيون؛ بإضرام الجسد وإلهابه وإشعاله للحدود القصوى التي تذهب بالضمير والعقل والأعصاب إلى الذوبان. نجحت؛ ومن غيري ينجح في تلك المهمة، ارتخت بعد وفير القُبَل المغتصبة عنوةً وكثير الصّدّ والخَذش، روّضتها؛ عدتُ إلى شبابي، عصرت النهدين وقوضت عجيزتها بالصفعات، ولم أترك تاري فعدت أستطعم شفتيها على مهل، بدرت الأنّات بصوتها حارّة منزوعة الحيلة، فار التنُّور، جردتُ الثياب وغُصت في الوادي المُرطّب بالجوى، اندسستُ بين فخذيها أخوض آخر معاركي الحامية، أقلبها كيف أشاء وتشاء ناري. كنت فوقها فارسًا مغوارًا أشقُّ ساحتها بالنّزَق، عدتُ إلى طفولتي أعبث بالطين اللازب، حتى دسست بذرتي في بستانها الشهي وانسحقت بجوارها في نوم عميق!

استيقظت في الصباح أكاد أُجنُّ كيف انصرفت في هدوء دون أن تمزقني بالسكين!

ورقة بيضاء 79

أشهد إن كانت الشهادة لمثلي تجوز أن سارة لم تكن يومًا تلك المرأة الفاجرة العاصية التي يتكلم عنها الناس ويشيعون

ويخوضون، لم تكن امرأة سَوْءٍ، حتى بعدما جرى ما جرى بيننا، فقد انزلقت بفعل فاعل، أنا الفاعل الذي جر قدميها للوحل، والشيطان الذي سجد لشهوته، فلم يرحم طين الصبية البشري الذي لان وضعف وساح، فأشعل ذروته وأخذها إلى الذلة لا المذلة، وأدركها في السهو لا العهر. امرأة ثلاثينية في عزها عطرها فائح، جاءت تسأل السلامة فوقعت في يد عِزبِيد خبير يجيد ملاوعة النساء ونزع آهاتهن في خدر.

بالعقل لو كانت امرأة سوء لوقع الفراق الذي تتمناه على الفور. صار كل ما تريده سارة فرج من الحياة الآن؛ وبعد الآن، هو الفراق! الفراق لا الوصم بالسوء، فهي على يقين أن السوء مربوطٌ في ذيل ذلك الثّنيس هاني. وناهيك عن كونه كان السبب في دق هَاوُن الماضي فوق رأسها، بإعادة نشر مقطع شكوتها القديمة التي بثّتها على الهواء لما ألمّ بها من تَعدٍّ جنسي في أثناء هوجة الحي الكبرى. فبعدما ظنت أن تلك الوقائع طوتها ذاكرة حي الأسماك، وإذ الدناءة تلبس اللحم والدم وتُحيل وجهها في وجه فوّهة تصفية الحسابات المصوبة المنتصبة في ساحة الحي القاسي.

ورقة بيضاء 80

بعدما عادت الهداوة تكفّل الخمسة المُطارَدين، وسادسهم كلبهم، أرورة؛ استكملوا طريقهم الذي خططه لهم يحيى، انتقلوا إلى الغرفة الأوسع كي تسعهم، مساحات تلك الغرف المتفاوتة وتأسيسها المكون من جدران بائسة وشباك ضيق مسيج للتهوية. تؤكد ما يُشاع كروايات أن ذلك المسرح استُخدم في سابق الزمان كسجن كبير، ثم

هاهم يعيدون سيرته الأولى لكن بحبس أنفسهم من تلقاء أنفسهم أملًا في الاختفاء لكنهم مغفلون موغولون في السذاجة، وربما الطيبة!

سألوا يحيى عن نفسه فقص عليهم ما كان من أمره الذي جرّ عليه المتاعب وزج به إلى محبسهم، أو بالأحرى جريمته المنفصلة عن جرائم مساعدته لهم جميعًا. فلكل منهم قصة كما رويت ما أعرفه عنها.

ليكن في معلومك، في تلك الأثناء كنت أتقلب على أشواك ملتهبة إذ لم أكن أعرف مكان زياد. اتصلت بحصى الأرض ممن أعرف ليطمئنوني، لكن علمت من ردود أفعال الواحد أو الاثنين اللذين ردا من الأساس أنني البقرة التي وقعت وكثرت سكاكينها.

انبرت ندى بقلب الأم الذي يأكلها على ابنها تسأل عن غيمه، بالطبع قالت حسن. ولكن لم يقف قلبها عن ضخ القلق بعدما عرفت أنه بحوزة أيمن باري، ليس لأنها لا تثق فيه، لكنها لا تمتلك تفسيرًا لتلك القبضة المقبضة الزائد وتيرتها في قلبها كلما مر الوقت. هوّنت سارة التي استكانت لهول ما هم فيه؛ من قلق ندى وأرجعته للموقف كله الذي يحوطهم:

- يا بنتي إحنا دلوقتي بنتاجر في القلق والخوف، بلاش تزوديها عليكي وعلينا.. إنتي بس عشان كمان قلقانة على تيمو فكله داخل في كله.

انطلق أحمد يفرد أشرعة البهجة رغم أنف الحبسة والجدران على طريقته الفوضوية، رافعًا كلتا يديه يصفق في صخب ويرقص

بشعبية وهم يرددون معه وبعده:

- وكله على كله كله وأما تشوفه قولُه قولُه.. هو فاكرنا إيه ايييييه مش ماليين عيييييينه وكله على كله كله.

ورقة بيضاء 81

غالبًا ما يأتي الشيوخ بالأمكنة المخفية، ثم يُعصرها الشباب لتوافي الزمن. والمسرح المهجور كمكان ليس بالمغمور المخفي لكنه أيضًا ليس تحت طائلة الكلام المباح، لدرجة أن يعرفه بحق من هم في سن الناشئة إلى العشرين دون اطلاع أو فضول شخصي منهم، حتى في الآونة الأخيرة قل ذكره بل تهمش دوره وهو الأصدق. في ذكرى انتصار الحي العظيم قبل خمسمائة عام، خصوصًا منذ بانت نوايا الكسب من ورائه ببيعه وتحويله إلى متجر عملاق أو فندق شاهق؛ أيهما أربح! لم أرفض هذه الفكرة بل أعجبتني كرجل في السوق يعرف قيمة المال والقرش، وما هذا المسرح البائس الذي يحوي الفئران ويتقول البعض أنه يشمل العفاريت، يغور في ستين داهية! ولا أتذكر في تلك الليلة البعيدة الهانئة في البلكونة ماهية مقدمات الكلام التي أوصلت السمر النادر بيني وبين زياد إلى الحديث عن المسرح. لعل ذاكرتي تدفعني نحو أنه يومها أراد استغلالي كمصدر خبري ينفعه في أحد التحقيقات التي يشتغل عليها تخص أماكن الحي المجهولة. وربما التمني في لجوء زياد إليّ كما يفعل الأبناء مع الآباء؛ فهو من هيج خيالي لاعتقاد أن ذلك قد حدث. فعليًا النسيان يجتاحني كل يوم أكثر وأكثر. على أية حال، يومها استفضت كأنه ضغط على زر فاندفس بغير ارتداد فلا أمل

في سكوته. كنت فرحان لأن جبل الجليد الذي بيننا يذوب ولو بنية المنفعة لا ودادة الأبوة. صناديق من الحكايات ألقيتها على مسامعه عن الأماكن وخباياها في الحي من مجمل عِشّى وبُصّي فيه، ومن خلال الكتب التى طبعتها تسرد حياة الأماكن وأصحابها. وفى وسط الحكي الذي وددت ألا ينقطع سرقت إشارة إلى أنقاض مسرح عتيق مهجور على أطراف صحراء الحي يتواتر حوله إشاعات مريبة، لم أضف أكثر من ذلك بخصوصه، لكن ابن الكلب أخذ عني صعوبة أكل ما يقدم له بغير تدبر ومكر وإعمال عقل. خزن في هامش عقله موضوع المسرح ثم جاءني بعد فترة قصيرة يسألني الاستفاضة في قصته. صراحة اندهشت أنه لم يصطدم بهذه الحكاية قبل ذلك، بيد أن خوفي عليه قد خلق التكتم على أحسن خلقة. وبرغم ما أملكه من عتاقة لؤم لم ألحظ لحظتها طزاجة لؤمه؛ إذ لم أتبين إن كان يسألني لفضول هرشه أم لخبطة صحفية جديدة أم لسبب آخر يخص أصحابه يحيى وندى وأحمد وسارة وأيمن؛ أولئك الذين كثيرًا ما راودني خاطرٌ بأنهم سيوردونه المهالك يومًا ما، وبدا لي يوم جاء اسم زياد على لسان العرص أمجد يوسف أن أوان الهلاك قد آن وحان!

ورقة بيضاء 82

في ذلك المساء البعيد القريب الأغبر انتشرت الأخبار العاجلة في فضاء الحي، المحنية رقاب وعيون الناس فيه طوال الوقت صوب شاشات هواتفهم، يترصدون الشاردة والواردة، المهمة والتافهة، الهزلية والمصيرية، لا يفوتون فائتة إلا حصدتها ألسنتهم. كانت تلك الأخبار فعليًا هو خبر عاجل واحد وحيد يعاد ويكرر وينشر.

عاجل: يقطع برنامج (مع أمجد) إجازته الأسبوعية اليوم في حلقة استثنائية مهمة.. فانتظرونا.

صوت نبضاتي أمام التلفزيون أنزرنى بقرب خروج قلبي من جوفي. لن يأتي أمجد يوسف إلا بما يهلك زياد بعدما رمى نفسه في أتون المهلكة.. تمنيت فنائي قبل هذه اللحظة ألف مرة، وذكرت اللّـه كثيرًا ودعوته أن تأتي العواقب سليمة، حتى ظهر أمجد على الشاشة منفوشًا كالطاووس، يصخب كالغازي يتلوى كالغازية:

- مساء الخير.. أهلًا بكم.. حلقة استثنائية من برنامجكم (مع أمجد).. قطعنا الإجازة ونزلنا النهاردة عشان حيّنا محتاجلنا.. ولا نستطيع إلا تلبية نداء حيّنا المبارك العظيم. خلوني في البداية أحكيلكم حكاية.. كنت بسمع ستي - اللّـه يرحمها - تقول مثل "يخلق من ضهر العالم فاسد" بالضبط هذا ملخص الحدوتة.. أنا قديم في الشارع الأوسطي.. عمري كله فيه وعارف كل زنقور فيه زي ما بنقول بلغة الحي.. كان فيه رجل برنس من الزمن الحلو من أعلام الشارع الأوسطي والحي اسمه بديع زهران أكيد سمعتوا عنه واللي ما اسمعش يبقى سمعه تقيل.. الحاج بديع زهران كان صاحب أكبر أتيليه تحف وأنتيكات في الحي.. وكتير من الأجيال الجديدة ما يعرفوش إن أشهر محل شاورما في نص الشارع الأوسطي دلوقتي كان هو مكان الأتيليه لخمسين سنة فاتوا.. لكن ورثته اللّـه يسامحهم ضيعوا هذه التحفة الأنيقة العظيمة؛ وبالأخص ابنه فرط في القيمة وجري ورا الفلوس، ومن ادعائه ونفاقه عاملّي فيها فنان وعامل فرقة مزيكا لكن يظهر إن هَمُّو على بطنه من زمان؛ لأنه زي ما باع

الفن في أتيليه أبوه عشان الأكل باع الحي واختار عداوته عشان الفلوس.. ما هو برضه ستي - اللّه يرحمها - كانت بتقول: اللي مالوش خير في أهله مالوش خير في حد.. وعشان تعرفوا إن رجال الحي الأشاوس مش نايمين على ودانهم.. بوصول يحيى بديع زهران إلى المسرح المهجور اكتمل عدد السفلة اللي بيهددوا السلم الاجتماعي واللي كنا ما نقدرش نصرح بمكان اختبائهم الحلقة اللي فاتت، لكن دلوقتي ما بقاش سر ولازم الحي كله يعرف أعداءه.. موجودين حالًا وأنا بكلمكم وأمن الحي الصاحي المصحصح محاوطين المسرح اللي شوية العيال الجهلة دول مصممين عن عمد وتضليل يرددوا إن المسرح ذو أهمية تاريخية وقومية، وبينشروا خرافات مدسوسة تم تفنيدها هنا في البرنامج وقُتلت بحثًا.. القائد بتاعهم يبقى يحيى بديع زهران مهندس فاشل مفصول من شغله وهنا بيت القصيد!

ورقة بيضاء 83

خلونا نعرف السبب من المهندس عاطف عبد الصمد مدير الشركة اللي كان شغال فيها المتمرد الهارب:

- مهندس عاطف أهلًا بيك.. قولّنا حكاية الولد ده؟!

- أولًا يا أستاذ أمجد أنا حابب اشكرك إنك أتحت لنا الفرصة عشان نثبت قد إيه شركتنا مخلصة لهذا الحي العظيم.. الولد ده كان غريب الأطوار وغير مريح بالمرة...

- غزاي يعني..؟! أرجوك وضح للسادة المشاهدين كل التفاصيل.

- إحنا أمام شخصية لديها من العداء والكراهية ما لا حدود له بالإضافة إلى ردود أفعاله غير المحسوبة، مش عايز أجزم إنه شبه مشعوذ لكن اللي تعاملوا معه مباشرة من مديرينه وزمايله أكدوا غرابة أحواله، واللي عرفته إنه كان بيحاول يبيع لهم بعض التماثيل قبيحة الشكل والأيكونات غريبة الشكل على أساس إنها بتمنح الطاقة الإيجابية والحظ وما شابه ذلك!!

- هو ده سبب رفده يا فندم؟!

- الحقيقة لأ وإن كان طبعًا هو من الأسباب الهامة لكن السبب الرئيسي والأول هو إنه شخص مفتعل للمشاكل غير منضبط على الإطلاق، محرض على التمرد على إدارة الشركة في الصغيرة والكبيرة، وبعض المآخذ الأخلاقية أنا في حل للخوض فيها احترامًا للمشاهدين، بل حاول أكثر من مرة نشر أفكار معادية للحي وظله العالي وطبعًا حذرناه أكثر من مرة..

- كل ده عظيم يا باشمهنس عاطف بس اشمعنى تم رفده من خمس شهور.. مش صح المدة كده؟!

- مظبوط يا أمجد بيه خمس شهور.. في الأول كان معترضًا على خطة الإعمار الشاملة الجارية في الحي لكن القشة اللي قصمت ظهر البعير بدأت مع ترسية مشروع هدم وتطوير منطقة المسرح المهجور على شركتنا، الولد هاج وماج وبدأ يعلن عن أفكاره الخبيثة بوضوح أكثر، ورفض إنه يشارك فيه بل تطور الأمر لطباعة ورق منشورات، تتهم القائمين على المشروع وأصحاب فكرته بالتفريط في دماء الأجداد في المعركة العظمى وكلام من هذا القبيل عارٍ تمامًا للصحة..

ولم يكن أمامنا سوى فصله بل وجمع هذه المنشورات المعادية للتطوير والتنمية، وبالفعل قدمنا عدة بلاغات لِما في الكلام من تحريض يتعدى سلمية الاعتراض..

- شكرًا لحضرتك مهندس عاطف عبد الصمد رجل المقاولات الشهير من ضمن أنجح رجال الحي الأفاضل.

أعتقد الآن الحقيقة أصبحت واضحة زي الشمس.. لا استنى على الفاصل شوية.. اليوم كل حاجة مباحة حتى تأخير الفواصل.. واعرض نتيجة التحريات اللي البرنامج حصل عليها حصريًا بالصور عن المجرمين داخل المسرح الآن:

المتهم الأول: يحيى بديع زهران وشهرته (يحيى زهران).

- المهنة: مهندس وصاحب مدرسة لتعليم الموسيقى.

- العمر: 48 عام.

- التهمة: التحريض على الظل العالي ويروج للدجل ويمتلك وكر لممارسة الدعارة.

المتهم الثاني: ندى إبراهيم نجم وشهرتها (ندى نجم).

- المهنة: محاسبة في أحد البنوك.

- العمر: 43 عام.

- التهمة: ممارسة الرذيلة والتحريض على الفسق والفجور واستغلال البنات في أعمال منافية للآداب.

المتهم الثالث: أحمد وشهرته (أحمد بس).

- المهنة: قهوجي.

- العمر: 35 عام.

- التهمة: حرامي هواتف محمولة وتسبب في عاهة مستديمة لأحد المواطنين كادت تودي بحياته.

المتهم الرابع: سارة فرج وشهرتها (سارة فرج).

- المهنة: خياطة.

- العمر: 37 عام.

- التهمة: ازدراء الدين المسيحي ونشر الفكر الإلحادي، فضلًا عن نشر أخبار كاذبة تنشر الذعر في الحي.

المتهم الخامس: زياد الشريف وشهرته (زياد الشريف).

- المهنة: صحافي.

- العمر: 22 عام.

- التهمة: ازدراء أديان وتهييج الرأي العام والتأثير على السلم الاجتماعي في الحي.

اطلع فاصل براحتك دلوقتي!

ورقة بيضاء 84

غرز خنجره بين ضلوعي ومضى نحو فاصل يفصل بين وصلتي الذبح. حاولت مهاتفة زياد لكن دون جدوى بدت الشبكات في مخبئه ضعيفة بما يكفي لفشل المحاولة. الولا ضاع مني ويا ليت البكاء

يفيد. دخل رأسي في وصلة نواح صامتة، عاتبت فيها نفسي والزمن والأيام والحجر والبشر، طلبت من كمال الذي لا أعرف أين ذهب أن يعود ليرى ما فعله ابنه يحيى بابني زياد، ثم سرعان ما أعاود اللطم وطأطأة الرأس حين أتذكر أن ما أحد أضاعه سواي، بكل مثقال ذرة من خردل فرّط في الاهتمام به والاعتناء بما يحب والتقرب منه.

عاد وجه الشؤم من الفاصل وجهه مكدود بادي عليه الاحتقان، فتعشمت أن الفرج قد وقع بهروب العيال، لكنه صاح كالملدوغ:

- عملوها السفلة عايزين يحرقوا الحي لكن ده بُغدهم! الآن أبلغنا مراسلنا في محيط المسرح المهجور باندلاع حريق هائل في سياج دائري حول مداخل المسرح وأعلاه!

ثم واصل العرص جعيره وصريخه حتى انبلج النهار وقد وقعت كل الحسرات هنا وهناك، بينما رحت أنا في غياهب الغفو والصحو تأخذني غيبوبة السكري إلى الغيمة. فهاتفت أيمن باري لئينقذني لكن هاتفه كان مغلقًا.

وقد ظل مغلقًا بعدها لسنوات!

ورقة بيضاء 85

أخر مرة هاتفني أيمن قبل الغلق التام كان في صباح يوم المعمعة، في حوالي التاسعة صباحًا بالتحديد في وصلتي الثالثة من النوم المتقطع. أخبرني في بهجة أن الصدفة حكمت بهذه المكالمة التي أزعجني بها كما وصف؛ إذ إن محطة انتظار الحافلة التي ستنقلهما، هو وغيمه، إلى استاد شارع الميناء؛ أمام منزلي، فتذكرني وهو لا

ينساني كما جاملني لحظتها. صبّح عليّ بلطيف الكلام ثم بدا أن خاطرة ما التمعت في رأسه أثناء المكالمة فسألني:

- بقولّك يا عم (.....) أكيد عندك قلم اسبراي الكتابة على الحيطة.

- لا يُفتى والرسام في المدينة.. دي لعبتك يا فنان.

- نسيتهم في البيت وهجيبهم ليه أصلًا.. بس محتاجهم ضروري.

صدفة خير من ألف ميعاد، هكذا بدا الأمر لكن بعد ذلك عرفت أنها أكثر من كونها صدفة، كانت قطرة رحمة لا أستحقها. لا أنكر بهجتي برؤيتهما خصوصًا غيمه، كان قد مر شهورٌ على آخر مرة رأيته فيها مع كمال قبل هيمانه واختفائه الطويل. في عجالة مخافة أن يفوتهما الأتوبيس أعطيت أيمن القلم المطلوب، واحتضنت غيمه بحرارة لافتة مُقبلًا إياه ثم قلت:

- وحشتني يا غيمه.. إنت كويس؟

- هو فيه حد موجود معانا يا أبيه أيمن؟!

سأله غيمه في وداعة واغتراب بينما أيمن ينظر نحوي مستغربًا لا يفهم ما قلته، فغلوشت عن زلة اللسان متخفيًا وراء وصية أبوية:

- خلي بالك منه.. ما تسيبش إيد عمك أيمن يا حسن، فاهم؟!

هز غيمه رأسه في طاعة. وبينما يشرعان في الانصراف وضعت يدي فوق كتف أيمن وسألته:

- ما تعرفش كمال فين أو راجع إمتى؟

- لأ. يحيى بس اللي يعرف مكانه.. سلام.

انصرفا ورحت أتابعهما من البلكونة فرأيت أيمن يكتب على الجدار الذي يحتضن محطة انتظار الأتوبيس؛ بناءً على رغبة غيمه وسعادته القصوى: "الأحمر بطل الأبطال".

ورقة بيضاء 86

عِندُهم غلب خوفهم، هم من عائلة صممت؛ كما نطلق في حيّنا على من يملك خصال الإصرار والتصميم والعند والعناد.. اختاروا أن يخطوا على جسر الموت، ويدقوا نغمتهم الأخيرة في ذلك المسرح الحزين المكلوم الوحيد مثلهم تمامًا.. النهاية تظللهم والنجاة ستعد معجزة.. بصمات أقدامهم محفورة في التراب الكثيف الناعم. وبصمات الأيادي فوق الآلات القديمة الحزينة.. اختاروا لأنفسهم دور العازفين في الباخرة الموشكة على الغرق، ليثبتوا أن الباخرة ليست موشكة على الغرق.. صعدوا من خندق البدروم يسيرون تهمس خطواتهم ولا تشي، تشير ولا تفضح. مروا من البوابة المرسوم أعلاها باللون الأحمر المتعارف عليه في لاصقات ممنوع التدخين، مع علامة مقصلة تجاورها صورة هوة من النيران تعنى خطأ واحذر وتجنب واجتنب وابتعد ولا تقترب.. مشى يحيى أمامهم على ضوء كشاف الهاتف. اتجهوا صوب خشبة المسرح يشبكون أياديهم بالموازية ليعبروا الممر النائم على يمين مربع الماء الأخضر.. والعجيب أنهم يمشون بداخله كأنهم رواده أو ربما بُناته الأصليون، ليسوا غرباء البتة عن كواليسه المظلمة وممراته المتعرجة، بل إنهم لم يتأففوا من شكل الماء الأخضر ولا رائحته العطنة، فقط سدوا أنوفهم وساروا.. لم تُخفِهم الأهوال التي سمعوها، ورضعوها من ثدي الحي عبر

الأزمان عن ذاك المكان الموحش الذي يستحليه العفاريت ويستديمه الشيطان، وما يجري فيه من فظائع يشيب بها الولدان، ويقطع خلف الشبان، ويرعد العربيد السكران فيتوب، ولا ينجو منها إلا الأولياء أصحاب الجنان.. بالنظر إلى أعلى تجد دائرًا ما يدور على حافة سور المسرح المكشوف قصعات صغيرات مغروز فيهن فتلات مشاعل كسبرتاية القهوة، وفي المنتصف فوق ستارة المسرح العالية يقف عمود مرتفعًا شاهقًا يخرج منه يدان منفرجتان كأنهما تبتهلان في خشوع يراهما الحي وأهله ورواده وضيوفه كمعلَم رئيسي تاريخي للحي المبارك، وبرغم تناثر الروايات بشأن هاتين الكفّين فلم تصل أية منها للتصديق الكامل.. وقد زُرع في الكفين العاليتين الفتلات المشعلات. نار الكفين خبت منذ زمن طويل وكسا راحتيهما التراب ككل شيء في هذا المكان المذهل العجيب.. خامروا التراب بانسجام يخنق أنفاسهم ويضيق تنفسهم؛ سعلوا تباعًا منفردين وجماعة، ولم تنفع أوراق المناديل في إزاحة أنهار التراب فوق الكراسي العتيقة.. في الظلمة المظللة عليهم إلا من نور الكشاف النحيل لمحوا الصراصير والعناكب، وفزعوا من الفئران والثعابين الهاربة المتسكعة من بين شقوق خشب المسرح الواهن البالي.. ساروا مصحوبين بالحذر والقلق إلى المسرح يصعدونه، أخذ المتمردون مكانهم فوق المسرح، لانت خشبة المسرح وترققت بما يدعوهم للحرص أثناء سيرهم، نصحوا بعضهم البعض همسًا بالمشي الهوينَى، قبل المشي يتحسسون موضع الأقدام، أثابتة أم ستأخذ أقدامهم وتهبط إلى مرقد الثعابين؟ صعد زياد معهم بلا آلة سوى قلمه يدون كل ما يجري حوله، كان متيقنًا أن عمر حبره أطول من عمره.

تلاقت إرادتهم حول التحدي، فقرروا الانفجار والسطوع والإشعال والاشتعال. حسبما سمعوا من أخبار المسرح الغيبية وجدوها أمامهم حقيقة، فلا تزال الآلات الموسيقية القديمة المهترئة واقفة فوق المسرح المُتهالك. تيبس بمنتصف المسرح قانون خشبي أمامه كرسي عازفه، وعلى بُعد خطوات منه كرسيّان يمينًا ويسارًا، واحد فوقه عود ينام على أوتاره، والثاني قعدته مكسورة على شكل نصف دائرة، بالكاد تحمل آلة كمان سوّد التراب لونها وأنحلت الرطوبة وترها.. وفق ما فهمته من بين سطور التدوين الذي قام به زياد في تلك الليلة الكبيسة أن لا حاجة لهم بتلك الآلات القديمة المهترئة، هي آتية من زمنها الذي آل إلى التراث الذي حاولوا تطويره بإحياء المسرح، بينما المتربصون بهم خارجه أرادوا هدمه وبيعه لأجل الكسب من ورائه.

أمسكوا آلالتهم الحديثة التي يجيدونها ويحبونها.. مضوا بقلوب رفضت الخوف من داخلها ورفدته؛ يواجهون موجودات وموروثات المسرح القديمة المرعبة التي حان وقت اقتحامها وليقع ما يقع..

وقوع البلاء أفضل من انتظاره!

كل هذه الأفكار التى أنقلها ليست لى بل هى لأصحابها الذين عاشوها وآمنوا بها، بينما أنا عشت من قبلها لا أفكر إلا في المادة ومن بعدها لا أفكر إلا في الفناء.

***

جلس يحيى كبيرهم الذي علمهم التمرد؛ على الكرسي الخرزان يطبع بصمة إليتيه فوق التراب أمام آلة القانون الذي لم يجد ضرورة من نزعه بالكلية من فوق طاولته؛ خصوصًا بعدما مرر عقلات أصابعه العريانة من واقيات الحماية، مجربًا أوتاره الحادة النحيلة القديمة، فوجدها مشدودة ممشوقة لا تزال تصدر النغم ولديها النهم. فأشفق عليه وأبقاه لعله يعيد سيرته الأولى وينفع السميعة المتأخرين. اكتفى فقط بإسناد آلته المحببة (الأورج) فوقه، على أن يحميها من الانزلاق بلمسات ساندات يجيدها ضمن جملة مهاراته وإمكاناته في العزف. داعب أحمد بس كرش العود ورفعه كمن يقلب قتيلًا على جنبيه بلا مقاومة، وجده ينازع منذ زمن بعيد إثر طعنة خرقت خشبه وفرقعت أمعاءه، ثم نزع شريطة العود التي تحرك أوتاره المتعلقة بقضيبه، فداعب أوتاره التي لم تحتمل فارتخت ساقطة تعلن صعود الروح، كأن العود انتظرهم لينتهي أمره ويبوح بسره! علق أحمد فوق كتفه حزام الجيتار آلته الخاصة، التي كادت تقع في الماء القذر أثناء عبورهم من الممر الضيق، كان يمسك بيد واحدة جيتاره وطبلة سارة، بينما الأخرى مضفرة في يد سارة تحميها من الزلل، وتُطمئنها كي تعيد الدم الهارب وتصدح بالحب المذروف.. وقف أحمد بجوار كرسي العود يلتقط نفسًا عميقًا؛ مرر يده فوق وتر الجيتار في حركة لا إرادية يعرفها كل من ارتاد النغمات وهوى العزف، في الوقت نفسه تسمرت عين يحيى ناحية ندى التي تقف تتحسس الكمان المتقصعة في تَمَاهٍ أذهل يحيى وأربكه مع تقصع خصرها، كأنه يصل بعينيه بينهما؛ بين خصر الكمان وخصر ندى، لعله يصل، فيبلعه التيه ولا يصل.. عرف الآن، والآن فقط،

لماذا كانت تلمع عيناها كلما تحدثت عن حبها الكمان، فهم أنها كانت تتحدث عن نفسها الكامنة داخل الكمان الشهية.. لم تكن المرة الأولى التي يراها في حضرة الكمان لكنها المرة الأولى التي يلتقط فيها اللقطة، اللحظة لقطة، واللقطة لحظة، ولقطة النهاية هي أُمُّ اللحظات.

أفاق يحيى من هيامه على صوت سارة تشير إلى الميكروفون القديم المتدلي من أعلى. أشار إليهم يحيى أن يهدؤوا ويستعيدوا التركيز، تجهزوا واستعدوا ووقفوا مصلوبين يواجهون المجهول والمسرح المتصدع بزلزال ضربات قلوبهم المتسارعة، والصدى المخيف، والماء الأخضر القذر، ودبيب الأرجل الغاشمة التي توافدت حول المسرح تقوضه في ضجيج مقبض وإحكام حديدي ينذر بالخواتيم.

ورقة بيضاء 88

على طريقة مطرب الحي الأسمر أقدم لكم الفرقة التي تخطو نحو النهاية بثبات لا يخلو من التضحية والاستبياع؛ يحيى بديع على الأورج وندى نجم على الكمان وسارة فرج على الطبلة وأحمد بس على الجيتار، لكنه حسب ما ميّل على أذن زياد وأخبره أنه يندب حظه لأنه لم يستطع جلب "الدرامز" آلته المحببة إلى قلبه. كان من اليسير على أحمد اللعب على أية آلة بعدما نبغ في تعلم أغلب الآلات في مدرسة يحيى التي كانت قد ذُمرت تمامًا بأيدي الغاشمين في ساعتهم تلك وهم واقفون فوق المسرح.

بإشارة من يحيى إلى سادسهم، كلبهم، كلبه وهو الأصدق، اسمه أرورة الجالس الباسط أقدامه ينظر إليهم من سطح المسرح في

أعلى نقطة ينتظر الإشارة.. ركض الكلب يلف السور المهيب يجز بأنيابه على مقبض شعلة يدور بها يسقي فتلات القصعات، فتضيء الواحدة تلو الأخرى تشعل الراكد وتحرق الحياة، حتى وصل إلى الكفين وفور إشعالهما وصلت النار بينهما كأنهما يمتنان لجمهور عريض يصفق في سعادة منقطعة النظير.. توهج البهو بأكمله في فضاء الحي وأعلن عن عودته من نعاساته ونوماته وكراته وسكراته وموتاته.. لعب اشتعال كفّي التمثال دور المايسترو الذي بحركة حماسية فنية متقنة من نار يده بدءوا الأربعة في العزف، وانتفضت النغمات من قبور الماضي وبُعث الصدى من الرقاد فاهتزت أركانه أيما اهتزاز!

قدموا معزوفة موسيقية عصرية، بل الأصدق أنها قديمة فعَصّروها، أو بلغة الموسيقى قاموا بعمل توزيع جديد لها، آتية من التراث الموسيقي للحي المزاجنجي فكلنا في حيّنا هذا متأثرون بنغماته، لا نكاد نسمع غيره. استطاع هؤلاء العفاريت استحضار صوت الماضي ثم ألبسوه الثوب الجديد في براعة، لعل ذلك ما قصدوه في كل ما فعلوه وأوصلهم إلى تلك النهاية.

ورقة بيضاء 89

بالأورج والكمان والطبلة والجيتار وندم أحمد على غياب الدرامز، لعبوا بالنغم المعصر النوتة التراثية القديمة، فتحدثتها الموسيقى بلباقة ورقصتها برشاقة، وصعد السلم الموسيقي وارتقت رهافته إلى سماء الحي، وتجلى شذا اللحن في الأعالي تناجي النجاة وتطلبه. وتقدم الترويح للنفوس المتعبة، والشجاعة للسواعد

المرتعشة، وتكسر أقفال المسرح الذي ظلت حواشيه مبهمة ومخيفة، يلعب غيبه في خيالات أهل الحي فيحيلهم الخوف إلى الاستكانة ويوهمهم الأبالسة المقنّعون بوجوه آدم عند كل خاطرة تخص المسرح، أن مصيرهم سيشبه غُصاة السبت الذين استحالوا قرودًا إذ تجرءوا وفكروا في الاقتراب منه!

ألهب العزف الفضاء، واشرأبت الأعناق ناحية المسرح، وحطت الأنظار فوق بقعة الصخب، وتمايلت نيران الفتلات في السماء في انتشاء، لعلها الوحيدة المنتشية في تلك الليلة؛ قبل أن تدري أن عربات المطافئ الحمراء تنتظرها في الخارج لتبل فرحتها. والنغمة في هذا المسرح المعبأ بالصدى بعشرة أمثالها في الذيوع من التي تحتمي بالجدران. الحي كله فرغ فاه وترك ما في يديه وذهبت آذانه إلى المعزوفة التي سرعان ما عرف كنيتها البشر والحجر والطير فوق الشجر. يا زين ما ربيت يا عزازي؛ شرّب كمال عزازي حب الشيخ المجدد ليحيى بالملعقة، لقي هواه فيه كما لقاه كمال من قبل، استعاره يحيى بما حرك الدموع من المحاجر فبدأت في التدلي نحو هضاب الخدود، لم يكفِ انفكاك الدموع لمؤازرة النغم، راحوا في منتصف البكاء والمعزوفة يُغنون بالحس الصاخب المدوي الذي لم يقرروه بل خرج من هيلمان اللحظة يوازي صحوة الميت الأخيرة، غنوا في حماسة لم تَجُبْ أنحاء حيّنا منذ عقود:

يا عزيز عيني وأنا بدي أروّح بلدي

بلدي يا بلدي والسلطة خدت ولدي

يا عزيز عيني وأنا بدي أروح بلدي

بلدي يا بلدي والسلطة خدت ولدي

ورقة بيضاء 90

المتمردون الستة بالداخل، والجمهرة المستنفرة الفزعة الغاضبة بالخارج. بينما المؤيدون بالخارج لمن بالداخل يكتمون الدعم في صدورهم خشية البطش بهم، وذرف شظرات الغضبات فوق رؤوسهم، فيصمتون ويتحاشون ندوب الخاطرة في عيونهم فتشي بما يسري في دواخلهم، حتى صار من هم بالداخل أصحاب الضجة والتهمة الأساسيين في حرية أكثر من مؤيديهم بالخارج! ولا يزال العزف الهادر من المسرح المهجور، يحلق في الفضاء ويخرق جميع الآذان؛ المستمتعة والمتمنعة، القابلة والرافضة، الهادئة والمتشنجة.. ثم مع مرور الدقائق، أتت النغمات أكثر ثقة وتمكنًا وراحة وتحديًا عما بدأت، فكلما مر الوقت وثبتت التهمة حلت الشجاعة واحتل الاستبياع أماكن الخوف والحذر، وربما تهيأت نفوسهم، عن طيب خاطر أو انتحازًا، أيًا كان، إلى دفع ضريبة ما قرروه وانتووه وعزموه، كأنه الطلب الأخير لهم قبل النهاية؛ هو الطيران في الفضاء بجسارة الصاروخ وخفّة العصفورا

الهلـع

ورقة بيضاء 91

كانت جدتي تخشى الهلع وتتوخى لحظاته وتنصح الناس ألا يخلعوا قلوب بعضهم البعض، حتى كان من جملة أدعيتها الكثيرة أن يُجنب اللـه هذا البيت وأهله وناسه ونسله الهلع فوق الأرض وتحت الأرض، وأن يسبل كامل ستره بالنجاة من هلع يوم العرض. كانت تنزعج إذا رمى حفيدٌ صغيرٌ نفسه في حجرها مذعورًا يختبئ من كابوس رآه أو من مكيدة مزاح خوّفه بها حفيد آخر أكبر. كانت تنهانا عن بسيط الهلع وكثيره، صغيره وكبيره. لا يتصور الهلع إلا من ذاقه. مهما سمعت عنه أو قرأت أخباره تجري فوق شريط المصائب الملون على التلفزيون؛ لن يتخطى شعورك حد الحزن والشفقة، أما المهلوع فإن نجا من ساعة الهلع فلن يبرأ من خلعة ارتداد روحه بين الموت والحياة. كنت جالسًا في البلكونة حينما خرجت الصرخات في الشارع تشق القلب والحلق. رفع رجلٌ يده إلى السماء يندب صارخًا "حراااااااام راحوا العيال"، ثم سقط فجأة جثة هامدة إثر طلقة لن نعرف مصدرها إلا يوم القيامة. الهلع الذي سرح في كياني لحظتها كان مزاحًا بالمقابل إلى الهلع الذي غمر غيمه حد الغرق.

***

ورقة بيضاء 92

الدخان ملأ السماء، ذلك الدخان الأحمر الذي اخترعه مجانين الكرة زادت حدته وشدته، ارتفع في فضاء الملعب فحرق العيون

وطمس البصر. ولم يكن غيمه بطمسة بصره الطبيعية في مأمن إذ توغل الدخان في صدره فضيقه ومسكته هو وغيره نوبة شديدة من السعال. غامت الرؤية أمام الآلاف في وسطهم أيمن ودارت الأرض تحت الجميع كأنه زلزال النهاية، عم العمى وواجهت الأذن وحدها المصائر. سمعوا سنابك الخيل آتية ترمح من كل اتجاه، كيف السبيل لدخولهم إلى الملعب، جرت العادة أن يقفوا بالخارج كحماية لكن أن يقتحموا النجيل الأخضر الذي صار قيامة بلا قعود ولا صراط. قفزت الخيول نحو المقاعد في الأعلى تنصاع لما ألفته من قفز الحواجز، كانت الحواجز يومها بشرية، لكنها أخطأت تخطيهم فدهست من قابلته دون تفرقة. طبقت الخيول العدالة التامة في الرفس والدهس. لم تميز ولم تَخْتَر وفق الهوى، بل هي منزوعة الإرادة مثل ضحاياها تمامًا، أولاد المتسخة الذين أطلقوها هم الدُهاس الحقيقيون، ومَن وراءهم هم المجرمون الأصليون. كان أيمن وغيمه من أولئك الذين فلتوا من دهس الخيول، فرا مع الجموع، بل الأصدق أن أيمن حمل غيمه وتدافع وسط الخائفين المهلوعين، آدميًا خائف يحمل آدمي يتجرع الهلع سماعًا دون أن يراه، يشرب الهلع باللمس، حُرم حتى من أن يشاهد قاتله وسكراته. صار المهلعون يدهسون بعضهم البعض، إذ فعصهم أوغاد كالأشباح ظهروا فجاة مثل كل شيء في تلك الليلة الكبيسة، حاوطوا المذعورين من كل جانب، طوقوهم كمَلك الموت، وهو منهم براء، فالملاك لا يضل ولا يجرم. باتت الخيول وراءهم والكلاب حولهم والهلع يغمرهم، عصير الدم المدلوق روى الملابس والحجر. حاول أيمن إيقاظ المنطفئ داخلهم، فصرخ في قلوبهم الجهنمية "معايا طفل.. معايا طفل أعمى"

صم بكم عمي فهم لا يسمعون، علت همتهم في القتل أكثر فأكثر، كان صراخه واستعطافه إياهم تأوهات أثارت المكبوت فيهم. أقدم أحد المطلوقين نحوه وهم كُثر، صرع مؤخرة رأسه بحديدة فارتطم بالأرض لم يحرك ساكنًا، ظنوه مات فلم يعاود الكرّة، في غمرة تلك القيامة لا وقت لميت لينال ضربتين. إلى الآن لا يصدق أيمن كيف بقي حيًا، الندبة في رأسه تذله كلما تحسسها. فلت غيمه من يد أيمن، وقع على وجهه الوديع مذعورًا، بكى بحرقة مقهورًا؛ تهشم أنفه فتخضب وجهه بالأحمر الدامي، ما زال حيًا، لن تفلت روح اليوم من المجرمين، امتازوا اليوم أيها الأبرياء. أسرع خرتيت آخر نحو غيمه المكبوب على وجهه فجذبه من ملابسه ليرفعه بطول يده الملعونة إلى أعلى مدى ثم حدفه من فوق المدرج فسقط غيمه من الطابق العاشر. تهشمت عظامه وغرق في دمائه وتفزّرت جمجمته من رأسه بعد هبدات قويات متتاليات، سكنت بعدها فوق البلاط المدبب يعانق السكوت الأبدي!

ورقة ملونة 10

بصقت الحسرة في كوب أيامي، وانتهت أسطورة جمودي، وتبرأ مني الحجر. تمنيت لو عدت لكل من وصفوني بالجماد فقتلتهم، ثم قتلت نفسي؛ لأنني من حشوثني بالصلب ثم أتى وقت الدموع فلم يذرف الصلب قطرة. فسكتت الأشياء من حولي إلا باطني كان يغلي فصعد الكلام على فمي خَرَسًا.

أصابني الخرس لعام كامل ثم عاد الكلام ثقيلًا والشفاه مواربة، أكاد أجن وأسال لماذا عاد الكلام؟! وكيف بقيت حيًا؟!

عندئذ قررت إنهاء مهزلة الحياة ثم خار عزمي عند التنفيذ!

تطهير الحي!

ورقة بيضاء 93

قبل لحظات من دوى صرخة الرجل الذى قُتل؛ وما تلاها من أنباء الدم الذي أرجع غيمه إلى التراب وسلمني إلى الخرس المؤقت؛ كنت أتابع ما يجري حول المسرح الذي قامت قيامته ولم تقعد. بانت في حرمه طوائف الحشد، احتشد الأهالي يقصدون الشبابيك والبلكونات، يركضون وراء الصوت ومصدره، ولهيب الإضاءات المرتفعة، متلهفين منزعجين محولقين مهرولين، يستدعون لحظات الزلزال المدمر الذي ضرب الحي منذ سنوات وكانت تصدعاته في النفوس تفوق تصدعات الجدران، وخسائره فادحة حتى إن بعض الواقفين في الشوارع آنذاك زعقوا صارخين بأن غضب الله شملنا فاهتزت الأرض، تمامًا كما يصرخ الآن الشيخ عمرو درويش في الناس المدهوشين من جراءة اقتحام المسرح والأنغام الصادرة والنيران المشتعلة. خرج صوته من قعر صدره حتى بُحت صرخته واحترق جوفه وكاد ينقطع للأبد: "يا أهل الحي المبارك أنقذوا الحي من الخراب والهلاك، يكفي ما أصابنا ونكابده منذ ليالٍ طويلة جراء هؤلاء الفسقة، أتريدون أن يطبق الكدر على صدورنا ويحرقنا شياطين الإنس، قليل التعاطف معهم ولو بالمكتوم في الصدور فهو تأييد جاهل مضلل وبال على صاحبه.. ليس بعد الروح روح، إما حياة هانئة في الجنان وإما نترك هؤلاء الديدان ينخرون في عظامنا وقلوبنا حتى توردنا المهالك.. اليوم بل الساعة يا أهل الحي المبارك ولا وقت سانحًا أفضل من الساعة لنقضي على رأس الماضي القبيح،

الذي يطل علينا بعدما سددنا فجوه ورفقّنا رقعه وكسرنا صحنه؛ هذه ساعة الفرق بين البركة واللعنة، منذ عقود تعمنا البركة خارج هذا المسرح حتى جاء هؤلاء الشرذمة العازفون على أوتار النار، بل الفاسقون، الذين يريدون انسياح اللعنة على البركة فيتداخلان بلا فاصل وفصل وتتيه البوصلة ويُفتن الناس، والحق أن الخطر الذي شملنا، ما هو إلا حصائد طرق القطرة للصخرة، تبدأ بالنقب اليئوس، ثم تزداد مساحة الرطوبة فتلين، ثم تخترق القطرة فتتقوس الصخرة وتتلاشى.. لا تستهينوا بالقطرة فهى قادرة ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ على لوثة وجنون آدمى مختالًا بعقله.. نحن نواجه ثلة من الضلالية المضللين الذين دنسوا الثوب وغبروا الصفو وحابوا الزّلات حتى استحالت معاصي، ففاصت السماء في غضبها المفزع الذي لا يتحمله بشر، ولا يتسبب فيه مُتقٌ، ولا يأمن مكر السماء إلا غبي معاند كافر، استذله الشيطان فاستخصب ثمرة الكفر البواح، وهي بوار".

رجت عبارات الشيخ عمرو الأرض من تحت أقدام الحشود المنصتين فرددها وكررها حتى علت دفقات الأدرينالين في الأدمغة، وتعطش الجميع لاقتحام المسرح وتحقيق النصر وهدم المسرح وتطهير الحي.

نجح الشيخ عمرو درويش نجاحًا باهرًا في تلك الليلة الدامية.

ورقة بيضاء 94

بعدما كان ما كان أخمدت المطافئ شعلات القصعات بضراوة تخاتل الرائي البعيد أو المتصفح في بيته بوقوع حريق هائل كما

وصفه أمجد يوسف، الذي خرج إلى فاصل عاجل ظهر على ملامحه أنه من طلبه. ثم عاد بوجه غير ذي الوجه، تطورت الجدية إلى تقطيبة جبين وعبوس وتقافز الغضب في وجهه كقرد مشعوف. في بادئ الأمر سبقني الظن الساذج ممنّيًا النفس بهروب الأولاد، وسرعان ما تذكرت حقيقة أن من يعرف أمجد الألْعُبان حق المعرفة من الصعب تصديق قسماته بسهولة، لكنه بالفعل أعلن هروب ندى نجم وحدها دون سواها، ثم دخل في وصلة صراخ مزعجة عاتية يناشد الجميع بالقبض عليها فورًا قبل أن تغادر محيط المسرح!

أسكتت ماء المطافئ نغم يا عزيز عيني بعدما ساح البلل. وحل صوت دبيب أرجل شرطة الحي محل ألحان العزف، وتم الاقتحام الكاسر وقيل إن عتاولة أمجد يوسف وبغاله الذين يحاوطونه أينما ذهب كانوا متواجدين قرب باب المسرح، وزعم آخرون أنهم كانوا ضمن المقتحمين. لم يتمكن أحد من الهرب، سقطوا جميعًا بلا أدنى مقاومة سوى الموسيقى، لم تمسهم الربكة أو يستحوذ عليهم الخوف، ثباتهم كان يُشبه ثبات غيمه الأبدي، إلا أنهم لا يزالون ينبضون ولم تتشبع الأبدية منهم بالقدر الكافي كما فعلت مع غيمه.

ساعتها لم يعلم يحيى بما جرى لغيمه، وأظنه لن يعلم أبدًا!

بعدما انفض المولد وعاد المسرح لعتمته، خرج علينا أمجد يوسف يعلن زوال الغمة ومصير المتمردين والهروب الغريب والاختفاء المريب للمجرمة ندى نجم. تهكم من اختفائها كأنها ارتدت عقد الاختباء. وقتها كنت راقدًا يرفضني الموت، أتوسل للخرس أن ينصاع لرغبة القلب في السكوت التام. يا للحسرة والقسوة، في عز

ما أعانيه من خرس وعلة جراء حزني على غيمه أسمع بأذني مصير زياد، أي قلب يتحمل، بيد أنني أدفع ثمن مشاريبي كاملة، حاول جيراني منعي من المتابعة لكن تشنجاتي كالمصروع كانت أعتى من أن يتحملوها، خشوا أن تقتلني الهزات، ليتها فعلت قبل أن أسمع أنهم زجوا بولدي إلى السجن والتهم حاضرة، يؤنسه حيث لا ونس في الوحشة؛ سارة فرج وأحمد بس، بينما يحيى بديع زهران حولوه إلى مستشفى الأمراض العقلية!

وقبل أن يختم أمجد حلقته أعلن هدم المسرح في غضون شهر والبدء في المشروع الكبير.

ورقة بيضاء 95

قلّت الأخبار الواردة عن باسل قمر منذ المغرز الذي فعله فيه أمجد على الهواء مباشرة، الزوج العاشق المتيم الباحث عن حبيبته يشي بها على روؤس الأشهاد. شاعت أصابع الإشارة بالخسة تجاهه وتسربت أنباء عن نوبات اكتئاب تفترسه من حين إلى آخر، ثم جاء خطف ابنه تيمو ليضعه صوب فوهة الانهيار بلا أدنى مقاومة. المقاومة النفسية تُبنى عبر عقود، وقد خلت عقود باسل من البناء فتهدمت روحه مع طول الانزواء، حتى استيقظنا يومًا على خبر انتحاره.

ولم تسفر التحريات على أي شيء بل لا وجود لتهمة من الأساس. ومن جملة الأحراز التي وجدوها في شقته كان الهاتف الخاص بباسل؛ فتسربت على مواقع التواصل الاجتماعي صورة لمحادثة بينه وبين رقم مجهول؛ ضربه الحي كله على تطبيقات معرفة

الأرقام المجهولة فلم يصل أحدٌ لصاحبه. وقد تعجب المحققون ماذا يمنع باسل من تسجيل اسم صاحب الرقم حتى اكتشفوا أن قائمة الرسائل كلها على هذا النمط، باسل لا يسجل الأرقام. حالة غريبة يحسبها الجاهل كِبرًا بينما هي ميل مخيف إلى الانطوائية والهروب!

كانت محادثة قصيرة للغاية، في البدء سأله باسل:

- فين السنيورة؟!

ظلت هذه الرسالة معلقة بلا رد ثم بعدها بفترة قصيرة منها أرسل باسل رسالة أخرى إلى الرقم نفسه، اتضح إنها مرسلة إليه حيث تظهر كلمة forward أعلاها:

- اللي بتدور عليها مستخبية في بدروم المسرح المهجور.

ثم بعد مرور مائة يوم من الرسالة الأولى وفق التواريخ المدونة في المحادثة، جاءه الرد عليها في تهكم بذيء، وقد لفت انتباهي في صحوة الموت لذاكرتي أنها كانت صبيحة ليلة المسرح الدامية:

- في طيزك!

غِـيـمَـه

ورقة بيضاء 96

عاد كمال عزّازى بعد سنة ونصف السنة من الهَجَجان، هى المدة الأطول في كل نوبات هججانه، رجع ليُرصع بالحسرة ويُتوج بالتراب. ضاعت عيالنا، الكبير جُن زورًا وبهتانًا، والوسطاني في الأغلال ظلمًا، والصغير قُتل غيلة. حينها كنت في فترة الصدمة والخرس، كان يجلس أمامي تفيض عيوننا من الدمع، يعاتبني صامتًا عن اقترافاتى التى دفعت ثمنها ولا أزال، وأعاتبه مخروسًا على غيابه الطويل. ربما في وجوده ما كان وقع ما وقع، كان له على العيال الذين راحوا خاطر وسطوة وحكمة وحبكة ومعزة وغلاوة ودلال ورأي ومشورة؛ حتى أيمن باري وصلنا بعد أيام من المذبحة تزامنًا مع مواراة الثرى لبدن غيمه المهشم؛ أنه لا يزال حيًا لكنه مختفٍ وراء الشمس! وبقدر ما كانت نظرات كمال نحوي تحمل قطرات حنان بقدر ما ألهبتني بالقسوة. كانت تسألني لِمَ الندم والبكاء، الآن تندم وتبكي وأنت المفرط الأكبر والظالم الأكبر والقاسي الأكبر. للمرة الأولى لم يستطع إخفاء الملامة، وهو محق، لكنه لو اطلّع على الشواية داخلي لرأى النار تأكلني، ويهضم قلبي الخبث وتقف بجوارها نار الحديد مثلجة.

هَجّ كمال ثانية قبل أن أبرأ من خرسي، وكالعادة ذهب إلى حيث لا أعلم، بل توقعت أنني لن أراه مرة أخرى!

قضيت عمري كله بين المطبعة الرئيسية والسرية، ومقهى بسيط، والبلكونة؛ الوحيدة التي بقيت لي بعدما عزّ الذهاب للمطابع واختفت

معالم المقهى. لم أغب يومًا عن رواح البلكونة إلا في فترات مرضي، حتى وقت خرسي كنت مقيمًا بها، كأنها نافذتي على المخفي من الأقدار، هي عندي أكبر من كونها تطل على شارع وميدان وحي يعجُّ بالناس المدلهمين المتعبين. أكشف خلالها عن مكنون الصدور وحواشي الخجلات، وقهقهات الضحكات ونوبات البكاءات وما أكثرها. لا أخترق عتمة الليل بإضاءة سهاري البلكونة بل أستظل بالظلام في الظلام. مهيئها تمامًا للسكنة حتى إنني أضع فيها تلفزيون. كنت جالسًا بها حين سمعت الصرخة التي أخبرتني بموت غيمه، وكنت واقفًا أرقب كمال عزازي قبلها بسنوات وهو يخرج من بوابة عمارتي يخترق الميدان، يحمل غيمه رضيعًا ودموعه تتساقط تحرق وجه الرضيع.

ورقة بيضاء 97

بيدَ أنه كان يومًا فارقًا في حياتي، لم أدرك ذلك في حينه، بل الأصدق أنني خادعتُ نفسي لأُمرِّر الأمر، الآن لا أملك عمرًا كافيًا لأكذب مجددًا. نعم خاتلت نفسي، وقلت إن كمال يعرف عني كل شيء؛ مثالبي ومحاسني، عهري وطهري، لن تتغير نظرته نحوي، ولن تفتأ هذه المرة أن تمر كسابقتها. مر صوتي الداخلي يخدع أذني ولا يمرق إلى قلبي البتة، كنت في ذروة غطرستي، حتى إنني لم يهمني أي شيء وقتها سوى التخلص من هذه البَليّة، لم يهز شعرة لي صورتي أمام صاحب عمري وسري، ولم أترفق بذلك الرضيع، فقط كاد يصيبني الجنون أن كيف لفتوة مثلي أن ينجب طفلًا أعمى، كنت شيطانًا فحق عليّ ألا تبيد جنتي، وراحتي وطمأنينة عمري. لم تتحمل أم العيال قسوتي فماتت بعد ثلاث ليالٍ من ولادة غيمه؛

أو حسن كما أسمته هي، ماتت تحديدًا في الليلة التي رميته لكمال عزازي يواري به حقيقته الفزّة بعدم قدرته على الإنجاب، رفضته ورفضت عاهته ورفضت أن أضيءَ عتمته، بل نكّلت به وأسميته غيمه. قتلتُ أمه بالقسوة قبل أن أقتله بالتخلي.

وما خدم قراري الملعون إلا أنني كتّومٌ كفاية فلم يعلم أحد من الأساس أن امرأتي حملت على كبرها، بينما أرسلنا زياد وقتها إلى خالته في شارع البحر ليقضي معها ليلتين حتى تلد أمه، فكان من اليسير عليّ إخباره عندما عاد أن الرضيع مات ولحقت به أمه؛ ثم ساءت العلاقة بيننا بعدما علم بسر التزوير، فتبرّأ من اسمي واختار أن يحمل لقب عائلة أمه ولو مشاعًا على الألسنة، حد استقرت نظرات استحقاري في عينيه!

ورقة ملونة 11

فات ما يزيد على ثلاثين يومًا منذ شمّعتُ الجدار وأعلنت غلقه لسبعة أيام، نوبات المرض والإغماءات التي لاحقتني منعت إتمام الأمر سريعًا، وربما النسيان كان ضليعًا في ذلك أيضًا، يُخيل لي أنه يتركني فقط حتى أذرف الحكاية فوق الأوراق ثم يفترسني بالكامل فلا أذكر من أكون!

جاء وقت أيمن باري حسب ما اتفقنا، لا أحد سيتم هذا الأمر بالشكل الذي أريده سواه، اتصلت به ليقضي معي الأيام القادمة حتى ننتهي من تعليق الأوراق.

بعد ما يزيد على عشر سنوات أقف الآن في البلكونة نفسها يغمرني الليل الدامس، أتابع أيمن باري وهو يحمل الرجل الهزيل المريض

النائم بجوار الجدار، أكله المرض اللعين حد بروز عظامه وتضاءل حجمه فبات خفيفًا كالرضيع، حمل رضيعي من قبل فحمله أيمن كالرضيع الآن، ثم اتجه به صاعدًا نحو بيتي.

آن لكمال عزازي أن يموت في بيتي.

الراوي العليم

ورقة بيضاء 98

أنا الراوي العليم، صاحب هذا الجدار وليس الرجل الهزيل المسكين، لن أفصح عن أسمي لعلّي أنجو من البطش أو يسبقه الموت فأنجو. أنا صاحب فكرته ومن صنعته، لن أحمل الآخرين جنوني وتهور أفعالي، وكفاهم ما حل بهم من تحت رأسي. أول الأمر وجدت الرجل المسكين حط رحله عند هذا الجدار، وغط في نومه واطمأن، كيف عرف أنه الجدار نفسه الذي كتب عليه غيمه في صباح اليوم المشئوم "الأحمر بطل الأبطال" قبل أن يمسحها البطاشون؟! وهل كان على علم قبل أن ينام تحته أنه الجدار ذاته الذي باعدوا بين ساقَي سارة خلفه؟! عرف كل ذلك رغم غيابه لأنه ذو وجدان. ألهبت الفكرة رأسي وبعدما استمر مبيته لأيام وأسابيع، فأنشأته لعله يكون منفسًا للحي وشبابه يخطون على أوراقه شجونهم وأحلامهم، ثم بعدها بفترة نازعتني نفسي المتألمة ووسوس لي شيطاني أن أحكي الواقف على صدري كالحجر. أحكي وأعترف وأتطهر ولو من وراء حُجب فكانت هي الأوراق البيضاء فوق الجدار!

ورقة ملونة 12

في ليلة مُغتِمة شَحّ فيها القمر بقيتُ على جلستي نفسها في البلكونة أنتظر العاقبة، ولا أظن السلامة آتية. بينما تسرسب أيمن باري خلف مشمع الجدار، يستعين بكشاف هاتفه النحيل ليتم ما أردته، أظهر عظيم موهبته، يستطيع أيمن الرسم بأي شيء حتى الرمل، لكن الصعوبة تلك المرة تمكنت في التشكيل بالورق. كانت

تجربته الأولى، تدرب عليها مرات عديدة حتى ألزمني بعدد الأوراق المناسب والكافي، وبتسلسلها انطلق يُعشِّق الورقة تلوَ الأخرى، حتى فعلها بقلبه لا بيده، بدمه لا عرقه. ولما أنهى مهمّته مع بزوغ خيط الفجر الأول، خلع عن الجدار ستائره الحاجبة لتظهر الحكاية مقصوصة مرويّة مرصوصة؛ بمهارة فائقة مُكوِّنةً وجه غِيمَه؛ ابني حسن!

تـمت

القاهري

الضاهر، ربيع 2023